رواية

دكتور محمد عباس

قصر العيني



مكتبة مدبولي

قصـــر العينى

رواية

دكتور محمد عباس

الطبعة الأولى ١٩٩٢

يطلب الكتاب مباشرة من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

محمد فهمى عبد الله

٣٠ مايو – ٥ يونيو

«يبدو أنها النهاية» .

همست أمى فى التليفون، ثم واصلت:

ـ جدتك مريضة جدا، يجب أن تذهب لتراها.

ـ إنها مريضة جدا منذ ولدتُ يا أمى.

واصلت الهمس :

هذه المرة تختلف، ويبدو أنها النهاية.

ثم بصوت عال :

ـ ....صحتك، لماذا........، يسلمون........ الأربعاء........ لايرحم...... و ....متى ستذهب؟.

ـ ربما الخميس القادم يا أمى.

ـ ومتى سأراك يا محمد؟.

ـ يوم الجمعة.

ـ الجمعة ... حقا... سأنتظر فعلا كى أراك لأننى احتاجك، أما أنت فما أقساك.

«بل ما أقساك أنت. وما أغباك أيضا أن قضيت هذا العمر تظنيننى لا أفهم. ما آمرّ السم، لكنه مغطّى بالعسل أشد إيلاما».

ـ كل سنة وأنت طيب يا حبيبى، يوافق يوم الجمعة عيد ميلادك، أموت شوقا لأن احتفل به مرة.

يا ابنة الـ... عيد ميلادى.. لكنه أيضا ذكرى موت أبى

الذى لم تعودى تذكريه.

- سوف آتى بالتأكيد يا أمى.

- كل مرة تقول ذلك ولا تأتى.

- لكننى هذه المرة سآتى.

«لا تشكِّى قط أننى آت، فأنا أعد لهذا اليوم منذ أعوام وأعوام، ربيت شاربى، يوم الخميس القادم سأصفف شعرى بطريقته، والحلة أتيت بها خلسة من وراء جدتى وإلا لملأت الدنيا صراخا. ثم تظنين أننى لن آتى، إنه ثار عمرى منك ومن زوجك فكيف لا آتى»

وارأساه، أما جسدى فما أشد ما يؤلمنى، كان قلبى مضخة معطوبة على وشك التوقف، تبذل أقصى جهدها كل مرة كى تضخ الدم فى فى عروقى، كما لو كانت آخر دقة ستتاح لها، كل نبضة منها كمطرقة تهوى على أم رأسى أو كسيخ من الحديد المحمى يخترقنى ليخرج من يافوخى مع كل خفقة، حادا قصيرا متكررا بشكل يكاد يدفع للجنون. أما ما يحدث فى الأطراف فلو كان وحده لضجِجت منه شكوى، لكن طنين رأسى يشغلنى عنه، كما يشغل الغريق غَصصه عن بلله.

طلبت القسم فى التليفون، دق طويلا ولم يجب أحد، طلبت القسم المجاور فرد أحد المرضى وطلبت منه أن ينادى الحكيمة راوية.

- كل أملى أن تردى على التليفون مرة واحدة قبل أن ينتهى الشهران.

وجاء ردها في ضحكة مراوغة:

– لماذا لا تطلب أبدا في الوقت المناسب؟ كنت آكل.

– راوية: أنا متعب الى أقصى حد، أريد أن أنام ساعتين أو ثلاث ساعات فلا أحد يعرف ماذا سيحدث بالليل، أرجوك حاولي ألا تطلبيني خلالها.

ضاحكة قالت :

– حتى لو مات نصف من في القسم لن أطلبك. لقد أعطيت الجميع الدواء وسآخذ الملاحظات الآن.

– حتى أمين؟.

– حتى أمين. نجحت سناء وزينب في اقناعه بأنهما ستكونان معه عند الانتقال لقسم جراحة الأعصاب، وأنهما لن يتركاه أثناء العملية ولا بعدها، فوافق على إنهاء أضرابه عن الطعام والدواء.

– سأراجع ملفه عندما أحضر في المساء كي يتم تحويله في المرور غدا. لا تنسى تجهيز كل فحوصاته.

عليّ أن أهدهد رأسي الموجوع، أن ألهيه، أخدعه أو أرشوه، تراجعت عن إضرابي عن قراءة الصحف، إضراب بلا جدوى، لم يشعر به أحد، لم يؤثر في أحد، اقتصرت الآن على مقاطعة الصحفة الآولى، أخذت أقرا اخبار الحوادث في الصحيفة التي معي، صفحة الوفيات، الاجتماعيات، كلما قلبت صفحة واجهتني صورة الرئيس، الحمد لله أنها ليست صورة زوج أمي التي تفاجئني أحيانا.

حظك اليوم: الظرف موات مع الجنس الآخر، لا تتردد.

مثل ابراهيم أبو شنب !! سأصطحب رواية الليلة إلى المشرحة، وسأحرص أن تكون البطاقة معى !!.

لكن الصداع لا يدعنى أدلف إلى أحلام يقظتى، إحدى طقوسى السحرية التى أتوسل بها الى إله النوم كى يدخلنى فى ملكوته.

.

في نعومة الفجر وضوء قمرة الشحيح الساحر أخذت أتحسس وجـه روايه فلا تقاومنى، يا حبيبتى، ما أشد شوقى إليك، بل أنا الأكثرشوقا، انتظرتك طويلا فلماذا لم تأت، لكنك تريدين زوجا، بل أريدك أنت، تسللت النشوة داخل أحشائى وئيدة لذيذة، ورأيت وجهى ووجهها ضخمين يقتربان فى بطء وتؤدة حتى يختفى معظم الوجهين ولا تبقى إلا أربع شفاه كبيرة مبللة تقترب وتقترب لكنها لا تصل، وفجاة يسطع النور فأرى عين الشمس ولمحت خالى داخلا فأردت أن أحذرها لكن الشفاه التصقت فجأة وانفرج المنظرلأعينهما الأربعة وقد اتسعت محاجرها رعبا وفزعا وهما عاجزان تماما عن الانفصال، وخالى يصرخ فيهما وأنا أحاول الاختفاء حتى لا يرانى لكنى لا أستطيع، وفجأة أعود طفلا فأصرخ: أدركينى يا جدتى فيهرب خالى ويختفى الوجهان والعينان والشفتان. فتعود راوية هامسة لماذا توقفت، أسرع قبل أن يأتى رئيس القسم، فأبدا مضاجعتها فى مكتبه على الترولى لكنه يدخل صارخا: ألم آمر ألا يدخل هذا الحيوان

القسم، فأجرى نحو المصعد ويجرى خلفى لكننى أدخل المصعد وأغلقه، ومع ذلك أراه يعود ليأخذ مكانى على الترولى، فقلت معاتبا: أتخونيننى يا راوية، فالتفتت إلى فإذا به وجه أمى، فصرخت وضغطت أزرار المصعد، فإذا به يهبط وأنامن الدهشة فى غاية لأن قسم الأمراض العصبية فى الدور الأرضى فأين يهبط إذن، أخذت أبحث عن الأزرار فلم أجدها، ولم أجد جدران المصعد أيضا فدققت الأرض بقدمى فاذا بى أفاجأ أنه بلا قاع وأننى أهوى، صرخت فزعا وأخذت أتحسس الأزرار مفكرا أن قاعه قد يكون كعجلات الطائرة يحتاج إلى زرار ما كى ينبسط تحت قدمى، ورغم الظلمة الحالكة رأيت أحد الأزرار يومض وسمعت صوت عادل بلال يقول اضغط عليه فضغت فأطلق صوتا عاليا كصفارات إنذار الحرب، فرن جرس التليفون المعلق على جدارالمصعد فأمسكت بالسماعة هاتفا:

ـ من ... من.

وجاءنى الصوت من الطرف الآخر :

ـ أنا راوية.

وأدكت أننى كنت أحلم وأننى استيقظت فأخذت ألملم أشلاء نفسى كى أفهمها :

ـ ماذا تريدين.؟

جاءنى صوتها فى هلع :

ـ تعال فورا....أمين انتحر.

كلمة «انتحر» لا تفرق بين الانتحار والشروع فيه، لذلك كان على أن أسارع بالتوجه إلى قسم الأمراض العصبية، فربما يكون قد حاول إيذاء نفسه ولم يمت بعد. كنت أرتجف، لاحزنا على أمين، بل بسبب استيقاظى المفاجئ بعد أحلام كابوسية، فضلا عن عمل مضن فى الصباح، مضن لكنه بلا قيمة، أن تفحص عشرة مرضى فى خمس ساعات أمر طيب، أن يكون العدد عشرين فمرهق، أن يكون خمسين فبداية الدجل، أن يكون خمسمائة فنهاية الدجل والأخلاق والضمير والعلم، حتى أن انهاكى النفسى بعد يوم العيادة يفوق انهاكى الجسمانى رغم فظاعته. أسير مسرعا فى بهو المستشفى الطويل الطويل فتبدو سرعتى وهلعى نغمة ناشزة تخرج بإيقاعها عن الرتابة الميئسة للطبيعة اللامبالية حولى. أسرع خطاى. لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد فى الاتجاه، وكل ضربة لقدمى على الأرض ترتد لرأسى. جفناى ثقيلان، ورأسى فارغ كبالون ضخم يوشك على الانفجار، وصدرى ضيق رغم أن الهواء كثير. وصلت الى القسم أخيرا فوجدته غارقا فى الانفعال والزياط والفوضى. كانت سناء فى هياج عظيم تنتظر على كرسيها المتحرك مترقبة وصولى.

صرخت : «دكتور محمد وصل» فتدافع المرضى نحوى، هلوعين مفزوعين كانوا، جاءت بعدهم راوية، سمعت مائة صوت يتحدث فلم أكد أسمع شيئا الا أنه تناول اقراصا. طلبت احضار أمين الى «الكشك» فورا. فى الخامسة عشرة من عمره لكن جسده لصبى فى العاشرة. بدا كما لو كان قد أدرك بعد فوات الأوان أنه أقدم على فعل خطير جدا، ما كان يبغى سوى

التنفيس عن انفعال وبالفعل ينتهي الانفعال ثم يعود كل شيئ كما كان، كبهاوان يقفز من شاهق ليبهر النظارة لكنه يكتشف وهو معلق فى الهواءأنه سيهلك فأنى له أن يرجع من حيث قفز، عددت النبض وقست الضغط ولاحظت التنفس :

ـ أى نوع من الأقراص أخذت يا أمين؟.

أجاب فى ارتباك وخجل وتردد:

ـ عشرة اقراص فاليوم.

موجها الحديث لراوية :

ـ كارياميل وكورتيزون مائى فى الوريد وتكرر فى العضل.

طلبت منه أن يقئ فلم يستطع، وضعت يدى فى حلقه ونبهت لهاته فأبدى انقباضات وتقلصات لكنه لم يقئ.

ـ أمين: عشرة أقراص فقط أم أكثر؟.

لم يرد، تفصد العرق من سائر جسده، باردا لزجا، تسارع النبض وضعف وتزايد التنفس وقصر، انقبضت ملامح وجهه فى يأس وبؤس وانفجر نائحا:

ـ أخذت أيضا عشرين قرصا من الفينوباربيتال ومثلهم ايبانيوتين.

رمقت راوية بنظرة نارية:

ـ أعطيتهم العلاج بنفسك؟!.

ثم مردفا فى حسم :.

ـ خذوه فورا الى الاستقبال.

العاملة تدفعه على التروللى الى الاستقبال وهى تجرى وإلى جوارها ممرضة تحمل المحاليل التى أمرت راويه بإعطائها. أما أنا فأجرى أمامهم حتى أجهز ما أريد.

أمين يشرع فى الانتحار وقد يموت. يعلم الله ما يجول الآن بخاطره، لعل اخوته يتصايحون الآن كل فى لهوه، ترى ماذا تفعل فى هذه اللحظة بالذات أمه؟ هل تعلمين أن ابنك يموت الآن؟ ألم يخفق قلبك أو يرتجف جفنك أو ينقبض صدرك، أم لعلك غارقة فى شأن من شئون حياتك ماوصلتك شحنة الألم واليأس والرعب الجاثمة على قلب فلذة كبدك، ماذا كان سيحدث لو لم أكن فى العيادة الخارجية فى الأسبوع الماضى، يرق قلبى لحاله، فأدخله المستشفى؟، ماذا لو أن الممرضة كتبت الجملة المأثورة: «لا توجد أسرة خالية»؟. فيم كانت أمى وجدتى تفكران عندما مات أبى؟.

ـ مهلا فليست نهاية العالم.

ـ أهلا يا آمال، معى مريض حاول الانتحار، أريد له غسيل معدة بسرعة، من النويتجى الآن؟

ـ أنا وابراهيم أبو بطاقة !!

ـ أرجوك أن تأتى معى ولا داعى لابراهيم.

سطحك متجمد. لا مبال، فمنذا الذى يدرك أن تيك القطعة الهادئة من الأرض سوف تنفجر فى بركان مدمر، ومتى؟.

منذا الذى يرى أبعد من تحت قدميه، منذا.

ـ هل سأموت يا دكتور محمد؟.

فاجعا حزينا مرتعبا متوسلا مذهولا كان سؤاله.

ـ لو ساعدتنا فربما لا تموت.

ـ أقبل يدك ... أنقذنى ... لاتتركنى ....

ثم مواصلا النواح:

ـ أنا يتيم، إعمل معروفا.

أستمر فى عملي الدؤوب ويواصل هو الكلام.

لست ابن أبى وأمى لكنك أخى يا عادل فهل تريد أنت أيضا أن آتى اليك، أتوسل، أقبل يديك كى تصفح عنى، اشتقت إليك، الدنيا بدونك صحراء قاحلة بلا رواء إن منعت شذاك عنى تقتلنى.

صاح أمين:

ـ دكتور محمد أنا لا أرى، عميت عيناى.

«كجدتى . . . .»

ـ لا تخف يا أمين، هذا من أثر الخوف.

لكن ماذا فى حياتك يجعلك حريصا على حياتك هذا الحرص كله، أحريص على الألم؟ ولو كان ثمة مقياس لدرجات الحرص عليها لتساويت يا أمين مع ملك ورئيس ومليونير وشحاذ وفدائى وخائن وبطل ولص. بل لتساويت مع ذبابة بائسة وقعت فى خيوط عنكبوت، أو ظبى فى الغابة أحرجه الصيادون فما معنى ذلك يا عادل بلال؟.

ينزلق وجهه المبلل بالعرق واللعاب بين أصابعى وأناأدخل الخرطوم فى أنفه، وعندما وصل الى حلقه تقلص بعنف، وقاء. واصلت الدفع حتى

المعده فأفرغتها، ثم ضخخنا محاليل الغسيل وهو عاجز عن الكلام تقريبا، خوفا، وجهدا وبسبب الخرطوم فى حلقه أيضا.

قالت آمال:

- الانتحار سهل ياأمين لكن الانقاذ منه صعب، فلعلك لا تقدم عليه مرة أخرى.

كانت يداى مشغولتين فطلبت من آمال قياس الضغط والتنفس والنبض. يمكن أيضا أن نعرف كيمياء الدم وأدق تفاصيل تفاصيل ما تغير داخلك، لكن من لى بمن يحلل ما يدور داخل نفسك، درنا حول الشمس وغادرنا المجرة فأى صاروخ مذهل يحمل أول انسان داخل ذاته أو حتى داخل ذات أى انسان آخر.

نتيجة قياسات آمال مطمئنة، أبشر أمين فيغلق عينيه فى راحة المجهد الذى انتهى عناؤه، أجمل منظر يهزنى فى الوجود، كملامح امرأة انتهى مخاضها وولدت لتوها. أمرت الممرضة بالعودة به الى القسم ومتابعة الملاحظات كل ساعة والتحفظ على غسيل المعدة لتحليله.

قررت آمال فى لهجة من تعوّد أن يأمر فيطاع:

- ستمكث معنا بعض الوقت.

- مع ابراهيم؟ لا أطيقه.

- ستضحك كثيرا، جعلته يطمع فىّ لكننى اشترطت عليه أن يحكى قصة البطاقة.

ملامح ابراهيم كأنها رسم كاريكاتيرى، وهى فى حماس يتصنع الغضب تجادله فى تفاصيل الحكاية وهو يبدى الحرج من أن يتكلم أمامى، أما بسمته البلهاء فلست أدرى ان كانت سذاجة أم خبثا.

ـ لقد حكيت لك عن كل شئ.

ـ أنت تخدعنى، لم تحك شيئا ولم تقل إلا الذى كنت أعرفه فعلا.

ـ وما ذنبى إذا كان كل شئ معروفا.

ـ إذا كان كل شئ معروفا كما تقول فلماذا ترفض الإجابة على أسئلتى.

أشار بعينيه محذرا، كى ينبهها أننى موجود، فانتفضت واقفه وهى تلتقط خنصره بخنصرها معلنة خصامه فيتشبث بيدها فى شبق معلنا استسلامه:

ـ دخلت فى تحد مع بعض الممرضات إن كانت العفاريت تطلع فى الليل أمام المشرحة فأعلنت استعدادى للذهاب وحدى فى الليل، لكنهن لم يصدقن ذلك، ففى الظلام المخيم هناك يمكن أن أخدعهن بالمرور بعيدا عن المشرحة، وتطوعت واحدة منهن أن تأتى معى.

ـ لماذا واحدة فقط يابراهيم، لماذا ليس اثنتين أو ثلاثة؟.

ـ هذا ما حدث يا آمال، وهل كنت أعرف أن ما حدث سيحدث.

منذا الذى يعرف أن ما حدث حادث، لو أمكن ذلك لتغير وجه الدنيا، ولو أدرك جدنا الأول أن خطيئته ستسفر عن كل هذا العذاب لارتدع.

كنت أقهقه فى وحشية: هل تصدق هذه الخرافات يا عادل. أنت تهمل جانب الرمز يا محمد، وبإهماله تختلط الأمور كلها عليك. لكن لماذا لا تكون كل المحرمات رموزا هى الأخرى، وكيف أصل الى الحقيقة إن كنت تراوغنى فإن إختلفنا قلت

لى تعال نتناقش بالعقل فإذا ناقشتك بالعقل قلت لى هذا وجدان لا مجال للعقل فيه، ما حيلتى إذن إن كان كل وجدان كونا بذاته، وماذا أفعل إن كان وجدانك يرى مالا يراه وجدانى.

كان منظر إبراهيم باعثا على أقصى درجات الضحك، وكنت أعرف الحكاية كما حدثت لا كما يحكيها هو، حين اصطحب امرأة قد تكون ممرضة وقد تكون مريضة - لم يعرف أحد لأنها هربت وهو لم يصرح أبدا حتى أمام البوليس - إلى منطقة المشرحة المظلمة الخالية فى الليل، وهناك ضبطهما أحد جنود الحراسة فعدلا من ملابسهما على عجل والجندى يصرخ فيهما وإبراهيم يحاول تهدئته والتوسل إليه محاولا إقناعه أنه طبيب كان ينقل جثة طفل إلى المشرحة، ولم يصدق الجندى أنه طبيب فطلب منه بطاقته، وانتهزت الفتاة الفرصة فهربت، ولسوء حظ إبراهيم لم تكن بطاقته معه فأخذ الجندى يطلق صفارته حتى حضر له زملاؤه فاصطحبوا ابراهيم بالصفعات والركلات الى مبنى الحرس، والجندى لا يكف عن الصياح: يقول أنه دكتور، وضبطته راكبا على امرأة دون بطاقة.

تساءلت آمال :

- هل قال مع امرأة أم راكبا على امراة.

تفصد وجهه بالعرق، ونظر نحوى كما لو كان يطلب نجدة، هو واثق أننى لن أقدمها له، فذكرنى بوجه أمى، متى وأين لا أذكر الآن.

وواصلت آمال :

- لا تخجل وقل نص الكلمات التى استعملها.

صاح فى هلع :

- لا يمكن.

- طيب أريد أن أعرف وجه المخالفة التى احتج عليها الجندى بالضبط، هل لو كانت البطاقة معك كان يتركك مع المرأة؟.

- ....

- هل ضربوك بقسوة.

قال فى كبرياء :

- لم يضربنى أحد. لو فعلها أحد لقتلته.

جاءت الممرضة تناديهما لوصول ضحايا حادث سيارة، أصوات الأنين والصراخ تصل الينا لكن آمال تستمهلها، وتواصل سؤاله فأهب واقفا:

- ساذهب لرؤية أمين.

- دقيقة واحدة.

- ....

تمتد طرقة المبنى الطويلة أمامى،النيل على يمينى لا يبدو منه شئ بعد أن أخفته المبانى المحيطة، تميل الشمس نحو الغروب، تكللها غلالة حمراء كالدم، أسير بجوار النوافذ العالية ذوات الأطر الحديدية والزجاج السميك، بعضه مهشم وما يزال يحتفظ بالطلاء الأزرق، ربما منذ حرب ٧٣ أو حتى ٦٧، كان سليما بالطبع حينما دهنوه، من المؤكد أن أبى سار فى هذا الطريق ذات يوم وشاهد النيل والغروب، ولعله ذات يوم فكر فىّ كما أفكر أنا الآن فيه، لكنك يا أبى الحبيب المسكين لم تعرف أبدا شيئا عنى، لم

تعرف أننى ألتزم نهجك، وأسير خطوك، ولم يكن الطب مبتغاى، ولا القصر العينى مقصدى لكنها أرجاء عبقتها ذات يوم أنفاسك، ولعلك وضعت يدك وأنت تسير علىِ نفس هذا الافريز الذى ألمسه الآن. كأنى إنْ سرتُ فى الطرقات التى سرتَ أنت فيها وتواجدتُ فى نفس الأماكن سأقابلك يوما.

ـ أنت ابن الدكتور فهمى عبد الله.

يا بن الزمن الردئ ذلك لا يهمك، وددت لو قلت له «بل ابن زوجة اللواء صادق»، لكننى طمعت أن أعرف منه شيئا عن أبى.

ـ أبوك كان صديقى.

كان قد حولنى للتحقيق معى بتهمة الإهمال، ولم أكن أهملت، دخل الى القسم ولم أكن أعرفه، لم تسبق لى رؤيته قبل ذلك قط، رغم أنه رئيس القسم، كان يريد شيئا فى مكتبه فجاء مساء، بديهى ألا أعيره اهتماما، ثم لاحظت الارتباك على هيئة التمريض، واتصلوا فورا بالنائب الذى جاء يلهث، سمعت سبابه له ثم صراخه :

ـ ومن هذا الحيوان الذى يلبس معطفا أبيض فى غرفة الأطباء.

ـ طبيب الامتياز يا سعادة الباشا.

ـ ناده لى.

أتى النائب يرتجف: «نهار أسود، سأفقد الـ Post وستفقد

النيابة، حاول أرجوك أن تعتذر له» . «ماذا تريد» . «ألا تسمع .. الباشا يطلبك» . «لم يطلبنى وانما طلب حيوانا يلبس معطفا» . فجاة والعرق يغرقه وجدته ينحنى بسرعة خاطفة حتى اننى لم أحس أبدا ماذا سيفعل، ولم أقدر بالتالى على تجنبه حين راح يقبل يدى وهو يتوسل أرجوك لاتضيع مستقبلى ، وفى نفس اللحظة كان الأستاذ شامخا مهيبا على باب الغرفة، كنت مازلت جالسا ولم أقم، أمر النائب فى صوت رهيب دون أن ينظر نحوى :

ـ لاتدع هذا الحيوان يدخل القسم مرة أخرى.

كنت هادئا جدا ونظرت نحوه قائلا :

ـ فارق السن لاجنون العظمة عندك هو مايمنعنى من الرد عليك.

خيم صمت جنونى، كان المدرس المساعد قد وصل، ولمحت راوية وزينب وحتى سناء، وبدأ المرضى يتجمعون، وأدرك الأستاذ أن الموقف ليس فى صالحه فانسحب موجها الحديث للنائب والمدرس المساعد : لايدخل القسم مرة أخرى.

كانت سناء من الانفعال في غاية وهى تهتف بصوت متهدج: «هائل يادكتور محمد» وأُصلت الحديث مشيدة بشجاعتي، بأننى أول رجل تراه فى هذا القسم الذى تتردد عليه منذ عامين، أننى الوحيد ذو الكرامة، صادفت عودة النائب كلماتها الأخيرة فوجه الكلمات نحوى صارخا : «ربنا

ينتقم منك»، ثم الي سناء :«ليست شجاعة لكنه يستند على اللواء صادق».

الأحمق لايعرف أنني لم أطلب من زوج امى شيئا قط،

حرصت ألا يعرف أحد علاقتنا، لكنه هو حرص في نفس الوقت ان يعرف الجميع هذه العلاقة مدعيا انه خالي فهو يخجل من أن يعرف الناس أنه الزوج الثاني. لم يكن يفعل ذلك حبا فيّ ولا حرصا عليّ، وانما ليستطيع الاستمرار في خداع الآخرين ونفسه أنه يعاملني مثل أبنائه، انه حليم رؤوف عطوف وأنه فوق ذلك كله مؤمن ورع يخشى الله.

أين كان الورع أيها الحيوان الذى يرتدى حلة ضابط يوم سرقت أرملة الشهيد من ابنه. أيها المسئول الكبير الذى ترتعد الفرائص منه رعبا، كيف استطعت، كيف .... وأنتِ؟؟!. يا أميّ ولست أمي.

- إخرس يا حيوان.

كانت أمي صامتة مطرقة والنقاش يحتدم بيننا، وكنت مستمتعا بكشفه، بفضحه، بإظهار مافيه، بداخلي رغبة معربدة في السخرية والضحك وأنا أتخيله برميلا أنيقا ممتلأً بالخراء، وأنني الوحيد القادر على كشفه، وأمام أمي، لم أغضب عندما حيونني فواصلت :

ـ لقد دافعت عن جميع النظم بنفس الحماسة، لم يكن لك رأى قط. كيف يتوافق هذا مع تدينك.

ــ ماذا تفهم أنت فى الدين يا أبا شخة.

ـ أتخيل أحيانا أنك تقرأ فى الصلاة: قل هو الرئيس أحد، الرئيس الصمد، لم يلـ ...

ـ أخرس ياحيوان.

ـ أنا أتحدث عن موقف مجرد تماما، لم أتحدث عن الجرائم التى تُرتكب عندكم والتى تفوق جرائم أعتى المجرمين.

ـ إخرس يا حيوان يا إبن الكلب.

وصفعنى، لم تؤلمنى الصفعة لكن ذبحنى أن يسب الكلبُ الشهيدَ فرددت له السباب والصفعة وصرخت أمى وطُرِدْت.

فى اليوم التالى كان هناك من ينتظرنى فى الكلية، أين بطاقتك، وأعطيته بطاقتى فناولها لشخص يركب سيارة فنظر بسخرية ومزقها وعاد الشخص الأول يقول أين بطاقتك، وقبل أن أرد وجدت نفسى مختطفا فى سيارة تنطلق بأقصى سرعة. ضُربت بالنعال والأسواط وعلقت من ذراعىّ ومن قدمىّ، وسبّ أبى مليون مرّة لكن أمى لم تُسب. بعد أيام خففوا التعذيب حتى اندملت جراحى ثم أعطونى بطاقة جديدة وأفرجوا عنى. بسبب عادل بلال كما عرفت بعد ذلك من آمال ومنه، قبل ذلك لم أكن أعرفه ولا هو يعرفنى، عندما سمع من بعض الزملاء ما حدث فى فناء قصر

العينى، بين المدرجين، ذهب إلى اتحاد الطلبة فالحرس فالعميد، سأل عن أصدقائى كى يعرف المزيد عنى فعرف آمال، نبه العميد إلى احتمال وجود لبس فى الأمر قد يحاسب عليه، فاتصل هذا بزوج أمى ليخبره بما حدث فتصنع أنه لا يعرف شيئا، وأنه سيتصل به فيما بعد، وفيما بعد أخبر العميد أن أمن الوطن لا يعرف قرابة ولا شفاعة وأننى بالرغم من أننى ابن أخته سأعامل كأى مواطن عادى حتى انتهاء التحقيق فى الشبهات المثارة حولى، على وجه ما أدرك عادل اللعبة فرسم مع آمال الخطة وجعلها تحدث أمى فى التليفون لتخبرها بما يحدث. فافرج عنى. واستدعانى العميد ليشيد بنزاهة زوج أمى وعظمته. ولينصحنى.

قل زوج أمى أحد، زوج أمى الصمد .....

على وجه من الوجوه كنت ممتنا لعادل رغم خجلى من معرفته بباطن أمرى وهو الذى لا أعرف عنه شيئا. حرص على رؤيتى كل يوم، على السهر والحديث ورفقة الطريق، والتواصل، دفعه لى ألا أكبت داخلى مشاعر القهر والذل، ياعادل، أنت تشد على يدى حنانا لكنك لا تعلم أن أصابع يدى مهشمة، وتضمنى الى صدرك وضلوعى محطمة، أما عطفك فيسبب لى ألما لا يطاق،فما يحدث لى هو بينى وبينه، هو يعلم عذابى ويقدر على إبداله فرحا، أما كشفك لألمى فكمن يضيف الى ألم الاغتصاب فضيحة العلانية.

ويوما كنت أترنم:

ـ لا تحلموا بعالم سعيد.

ـ فإذا به يكمل :

ـ فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد . .

وخلف كل ثائر يموت أحزان بلا جدوى

ودمعة سدى.

وانداح خجلى منه وأنا أهتف فيه وروحى تعانق روحه:

ـ ومثقف أيضا.

وبدات علاقة استمرت وازدهرت ثم انقطعت.

فى مكتب العميد كان رئيس القسم يرحب بى هاتفا :

ـ أنت ابن الدكتور فهمى عبد الله. لماذا لم تقل لى؟ أبوك كان صديقى.

الحيوان الذى لا يلبس معطفا لا يهمه أبى بل يفزعه زوج أمى، انتشر ما حدث بينى وبينه ولعل أحدا حذره من سوء العواقب فاستدعانى فى مكتب العميد فى اليوم التالى، لعله لم ينم أمس طول الليل، وذلك جدير بأن يقلل كراهيتى لزوج أمى لكنه يزيدها، وددت أن أبصق فى وجهه، لكن ازاء ذكراك ياحبيبى تخور قواى وينفثئ غضبى، وكيف أبصق على وجه قد تكون قد رايته ذات يوم وقد يكون رآك.

ـ كيف حال أمين.

ـ كالعفريت !!

ردت سناء فى ابتهاج، أما راوية، مجموعة الأعضاء الفرعية حول جهاز تناسلى، فقد لحظتنى بعينين متناومتين مكتفية بإجابة سناء التى واصلت حديثها :

ـ هل قرأت الخطاب الذى كتبه. ؟؟

ـ أى خطاب؟

أجابت زينب فى صوت خافت. كما لو كانت تود ألا نسمعه، أو أن نظن القائلة أخرى :

ـ خطاب الوداع الأخير، كان يظن أنه سيموت فكتب الى أمه رسالة مبكية.

علقت راوية:

ـ ومع ذلك كدنا نموت من الضحك أثناء قراءتها.

ساد لغط، صوت سناء العالى، وكأنها تحاول أن تغطى به على صراخ داخلى بعد اصابتها بالشلل، وزينب التى تتبدى مأساتها فى المحاولة الدؤوبة لإنكار ما أصبح الجميع يعرفونه، أن التهاب العصب البصرى قد أدى بها الى العمى. بعد أن فحصت أمين رجتنى سناء بعينين متوسلتين أن أجلس، اعتذرت بإجهادى، بالصداع الذى آلم بى بعد استيقاظى المفزوع، تخاذلت بعد اعتذارى، كأنى أهنتها برفض دعوتها وهن الجالسات فى مكتبى !!

ـ إجلس حتى لتقرأ رسالة أمين.

إجلس من أجلى، من أجل حبى لك، المحرم المحروم، الذى لن يصل أبدا إلى غاية، ليس له نهاية، وليس من حقى

مجرد التصريح به، أما وقد تناءيت عنى فاجلس لتقرأ رسالة أمين.

كان طنين الصمت يدوى داخل جمجمتى، فأنى لى أن أثبت أن ترجمتى لنظرة عينيها المتخاذلتين صحيحة. امتدت يدها المرتعشة تبحث عن الخطاب فى جيبها، مدته لى وهى تكاد تكون عاجزة عن الإمساك به، تداركت فأخذته قبل أن تفلته يدها فتغرق فى موجة من الصراخ والعويل.

- أنا حقيقة مجهد جدا.

ثم مردفا فى ابتسام من يُغرِى بالأكثر كى يُعزَفَ عن الأقل :

- ثم لو أننى جلست الآن فلن أستطيع السهر فى الليل.

قالت صارخة :

- إذن تعدنا بسهرة حتى الفجر.

- إن شاء الله.

إن شاء الله، كما شاء أن تكونى قعيدة مشلولة وكما شاء أن تكون زينب عمياء وراوية تمثالا مجسما للجنس، وأمى .... ماذا يمكن أن أقول عنها، شاء أيضا أن يموت أبى ربما يوم مولدى، اليوم الذى أخجل من ذكره، كلما سمعه أحد انفجر ضاحكا: «ألم تجد يوما آخر لتولد فيه؟ ٥ يونية، و١٩٦٧ أيضا» ثم تختلف التعليقات بعد ذلك، لو كنت بنتا لسموك نكسة.

- يا عم يوسف جهز لى العشاء.

أزدرده.

لو سألت عادل لماذا نأكل لضحك منى ساخرا !! لكننى لست مثلك. لا

أستطيع الانتقال الى السطر التالى دون أن أفهم ما قبله. وثمة أسئلة بلا جواب لا تحتمل التأجيل عندى لكنك تمر عليها مر الكرام، لكن تجاهل الجهل فعل لئام لاكرام.

- تفضل الشاى يا باشا.

- اجلس يا عم يوسف. خذ سيجارة.

وأخذها.

- ما هى أخبار أجنحة عمارة المنيرة يا عم يوسف.

عم يوسف كالآخرين لص يعمل فى سكن الأطباء منذ أكثر من ثلاثين عاما، وبرغم دخله المحدود استطاع أن يبنى عمارة فى المنيرة، وأطلق عليه المازحون شائعة لا تخلو من حق أنه بناها ببيع الدجاج المخصص لغذاء الأطباء.

- لم يعد فى الدنيا خير يا باشا.

كلكم تقولون لم يعد فيها خير لكن كل شئ يستمر، والمكابر فقط هو الذى يدعى أن الأحوال تسوء، فهى تبدو دائما أسوأ لكنها فى الواقع أحسن، مثل عم يوسف كان عبدا منذ مئة عام ومنذ خمسين عاما كان أقصى ما يطمح إليه أن يسد رمقه ويطعم أطفاله، الآن يملك عمارة يقارب ثمنها المليون جنية ومع ذلك يسب الدهر.

- منه لله جمال عبد الناصر ترك لنا قوانين الايجارات ثم مضى، عمارة يا باشا تساوى أكثر من مليون وايجار شققها ملاليم، والزمن أغبر لا يرحم.

ماذا أملك لك يا أبلة حتى تنافقنى بذمه، ومن أدراك أنى أكرهه؟ أم لأنى طبيب.

ـ عم يوسف: أنا لا أكره عبد الناصر ولا أحبه، لم أحضر أيامه، ولم أع زمانه، فهل كنت تكرهه وهو موجود كما تكرهه الآن.؟

رمقنى بعين فاحصة حذرة كأنما يسبر غورى، يتأكد من أنى لا أخدعه ولا أستدرجه، ثم اكتسى وجهه بملامح استهانة كأنما أدرك أن الزمن ولى، وأننى لا أملك حتى لو أردت أن أوذيه.

تمتم فى صوت مشحون :

ـ أنا لم أكرهه أبدا، لا الآن ولا قبل الآن.

نظر إلى ملامح الدهشة التى لا ريب بدت علىّ فأردف:

ـ كان سبعا، مثل عنترة وأبو زيد الهلالى وبيبرس، لكن الدنيا الغدارة اجتمعت عليه .... تقلص وجهه وهو يقول :

ـ لقد بكيته بأكثر مما بكيت أبى وأمى.

منذ بداية سنة الامتياز أمنع نفسى من سؤاله عن أبى، هل يذكره.

ـ يوم آخر يا عم يوسف، لا يكون يوم سبت، أريد ان اجلس معك لأسمع منك طويلا.

ـ مؤكد أن سيادتك فى دفعة النواب الجدد.

ـ الله أعلم يا عم يوسف.

منذا الذى يعلم ما يحدث غدا، ألآ يمكن أن تحترق القاهرة أو أن يُقبض على زوج أمى فى مؤامرة فيُزج بى فى السجن معه، أو أن تقرر أمريكا تأديب مصر. أو ان أنزلج على قشرة تلك الموزة التى اكلتها الآن فأموت.أو ربما انتحرت. كل شئ ولا شئ يمكن أن يحدث. كل شيئ إلاّ أن

ياتى عادل بلال، أخطات فى حقك، جرحتك، لكن لماذا لم تفهم أنت الآخر، أننى أنا الغريق حين أشدك للقاع لا أريد قتلك، إنما أتوسل إليك بكل ما فى الأعضاء البشرية من قدرة صامتة على التعبير، أن تدرك حجم عذابى، أن تكون محاولتك لإنقاذى، أكثر قوة وأشد مهارة، لا أن تتخلى عنى كما تخليت.

التليفون أمامى، لو استطعت لكان معى على الطرف الآخر بعد دقيقة، لكان فمى فى أذنه وفمه فى أذنى، لكن ليس هذا ما أريد وليس غيره يعلم. إنما أريده هو. فكيف كيف. كيف يمكن أن أمحو من على صفحة الزمن ما حدث، ألاّ ينسى ولا يتناسى بل أن يمحى فعلا، ليس كأن لم يكن، بل هو لم يك قط. وما دمت لا أقدر على ذلك فما أعظم جرمى، لو أقدر، لذهبت إليه، أذرف دمعى بين يديه، أرجوه، أتوسل اليه، لا أن يغفر لى، لأننى أنا نفسى لا أقدر على الغفران لنفسى، ولا لكى ينسى ما حدث، فأنا نفسى لن أنسى وحشيتى وتخلفى فى إيلامه، ولو عرفت لماذا أذهب لذهبت. لكننى لا أعرف.

هل استعطفه، أقول له أننى مسكين معذب أبى لاقبر له، ولا أم لى، أننى لم أحب أحدا مثلما أحببته، وأننى وأنا أذبحه كنت أذبح نفسى، لا جزءاً بل كلا، أن نصل الخنجر الذى غرزته فى أحشائه كان موجها الىّ لا إليه، أننى كنت أعاقب فيه ذلك الجزء منى الذى أستطيع أن أحدده، أن أمسكه بيدى وأتحسسه، هو الهو أنا، أما الأنا فليست سوى سراب كلما أوشكت على الاقتراب منه ابتعد، ودخان كلما بدأت أنظر فيه أعمى بصيرتى وبصرى.

نشوة التوحد والتطهر كانت مع عادل بلال، راحت لما راح لكن لماذا كان عليه أن يذبحنى :

- ماذا تقول فى مريض يرفض الذهاب الى الطبيب لتشخيص مرضه؟.

- ماذا تقصد؟.

- لا تسئ فهمى، أنت محتاج للعرض على طبيب نفسى.

أطلقت ضحكة صاخبة. يا ابن الكلب هل كان عذاب كل تلك السنين مرضا.

- أسخر كما شئت لكنك تعلم أن حالة من يدرك أنه مريض أكثر سهولة ممن لايعلم.

- هل معك بطاقة؟!.

لكن هل كان يجب أن أفعل بعد ذلك ما فعلت.

قالت راوية فى التليفون :

- سرير ٢٣ مات.

- ماذا.؟!

لو أنها تقرأ الخبر من صحيفة لكان انفعالها أشد.

تغنج:

- مات.

- دون أن تخبرينى، دون أن تطلبينى.

- كان عاديا حتى أخبرنى المرضى أنه لا يتكلم، ذهبت إليه فوجدته ودّع !.

- أنا مستاء جدا ياراوية، كان يجب أن تخبرينى.

تغنج مرة أخرى :

- ماذا كنت ستفعل؟.

هل كانت أمى تغنج هكذا ما بين موت أبى وزواجها؟.

توفى المريض بسبب هبوط فى الدورة الدموية والتنفسية واستحالة عضلة القلب وينقل للمشرحة بعد ساعتين.

وضعت السماعة على صدره، سلطت الضوء على حدقتيه، ذلك الانطفاء فى الأعين الميتة يقبض روحى، أسمع من خلاله نداء غامضا يدعونى.

يصاحب دخول امال دائما زياط، تتخلل حيويتها المكان والزمان والأشخاص كما يتخلل الماء أرضا عطشى فترتوى، ونباتا ذابلا فيزدهر، حتى الموت لا يفلت من لسانها اللاذع أو فكاهاتها.

- محمد: ما معنى استحالة عضلة القلب.

- لا أعرف!!.

وأطلقت ضحكة صاخبة !! محمد من فمها شخص آخر، لا يمكن أن يكوننى، موسيقا صوتها، طريقة نطقها للحروف، وصل الحرف بالحرف والكلمة بالكلمة، وحركات ملامح وجهها وإشارات يديها، واهتزازات جذعها. آمال لا تتكلم بلسانها فقط بل بجسدها كله. لذلك فالكلام معها له طعم آخر.

- كيف حالك يا أمين.

وأجابت راوية :

ـ مثل العفريت، وقد اكتشفت أن معظم الأقراص التى ادعى أنه ابتلعها ملقاة تحت السرير.

ـ مساء الخير، كيف حالك يا سناء ويا زينب.

مددت يدى لأصافح يد سناء الممدودة المرتعشة وهى جالسة على مقعدها ذى العجلات، لكننى سرعان ما تركتها كى أدرك يد زينب التى امتدت فى اتجاه آخر، زينب عمياء لكنها تخجل من الاعتراف بذلك، كما لو كان تقصيرا منها، أو عارا هى التى ألحقته بنفسها.

أطلقت سناء ضحكة صارخة كالنواح :

ـ سوف أفتن لك يا دكتور محمد.

تعالت صيحات زينب وراوية:

ـ لا .. لا

لكن سناء واصلت :

– خافت راوية من غضبك فطلبت الدكتورة آمال ورجتها أن تحضر.

لست أدرى لم توطدت العلاقة بينى وبين سناء حتى رفعنا الكلفة، ربما لأنها علاقة صافية لا يشوبها شبهة الرِغبة، لا عن سمو بل لأنها مشلولة لا يمكن أن تُحس ولا يمكن ان تَرغب. وعندما قالت والمرارة طوفان نوح: لا يمكن ان تفهم إلا إذا جرّبت أنت أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايحسه إلا المرضى، أدمت قلبى، وألقت داخلى جرثومة الإحساس بالذنب، كما لو كان علىّ ليس كطبيب، وإنما كإنسان، إما أن اشاركها المرض أو أن تشاركنى الصحة، فأخذت تكفيرا عن ذنب لمُ أرتكبه

أحاول أن اثبت لها أن المرض ليس أقسى ما فى الوجود ولا حتى الموت، لأن الأقسى فعلا أن نعيش، حكيت لها عن أمى التى هجرتنى، وأبى الذى مات، وانعدام أملى، أردت أن أثبت لها أنها هى المشلولة أقوى منى وأننى أنا الصحيح أشد تعاسة.

ـ لماذا لا تتزوج آمال.

ـ لآننى لا أنوى الزواج مطلقا.

ـ لماذا؟!.

ـ لأننى لا أرضى أن يشقى أى إنسان فى العالم كما شقيت، حتى لو كان أعدى أعدائى فما بالك لو كان ابنى، لا أريد أن أموت فأتركه لجدته تربيه، فحتى جدته مشغولة بزوج آخر، تركتنى من أجله، لا أريد أيضا يا سناء أن أموت، ليعيش ابنى عمره كله، يسمع ويرى من يسفه ويسخر من القضية التى مات فى سبيلها أبوه. وبلغ بى الانفعال كل مبلغ فاجتاح الألم كل عائق بينما أواصل القول لها:

ـ كيف أحتمل أن يكون لى ابن كأمين، أو بنت يصيبها ما أصابك أنت وزينب، دون ذنب، دون سبب مطلقا.

إلا العبث.

انغلاق عقلك يخيل لك أنك وحدك على صواب وأن الآخرين جميعا خطأ. كنت قد سئمت، فرددت عليه ساخرا:

ـ أنت لا ترى أبعد من جيوبك الأنفية.

ـ وأنت غارق فى ذاتك حتى لا ترى أى شئ حولك،

- إذن إحلفى أنك ستغسلين يديك جيدا.

وقالت آمال بصوت خفيض مستغلة طرش أم فتحى :

- قالوا للكاذب احلف قال جاء الفرج.

وأخذت آمال تحكى عن أبيها - المحامى الكبير - عندما كان ذاهبا للدفاع عن متهم بالقتل، وأبلى المحامى بلاء حسنا حتى أفرج عن المتهم بكفالة حتى يوم المحاكمة حيث اصطحب المتهم وأمه فى سيارته إلى المحكمة، وأخذت الأم طيلة الطريق تدعو الله أن يظهر براءة ابنها، وأن يظهر الحق، وصمت المتهم طويلا لكنه إزاء حرارة دعاء أمه أنفجر فيها قائلا: «لو ظهر الحق فيها إعدام».

انفجرت ضاحكة وانفجرن ضاحكات .. وضحكت.

واصلت آمال موجهه الحديث لراوية:

- سألت إبراهيم مرة أخرى لماذا لم يخطبك.

وانفجرن مرة أخرى ضاحكات.

كنا جميعا نعرف الحكاية، ومع ذلك أخذت راوية تعيدها، وهن يستزدنها، فى دورة الامتياز الماضية كان إبراهيم يعمل فى قسم الأمراض العصبية فأخذ يغازل راوية بطريقة وقحة، كانت آمال معه فاتفقت مع راوية أن تتجاوب معه سخرية منه، وحدثت عشرات المواقف الضاحكة عندما ظن إبراهيم أن راوية قد شغفت به حبا، لكنها كانت تصده كلما بدا منه فعل معيب قائلة: ليس فى القسم، حتى طلب منها أن يلتقيا خارج القسم، ووافقت - بعد إلحاح منه - بالاتفاق مع آمال، التى دبرت مع عم حسنين أحد العاملين بمكتب أبيها أن يحضر اللقاء باعتباره والد راوية،

والحقيقة أن الإيمان هو ما ينقصك.

ـ لكننى لا أومن بأى مبرر لكل هذه التعاسة البشرية، ولا بالنظرة الراضية فى عينى خروف ينتظر الذبح.

تجاهل عادل إيماءتى المستفزة نحو عينيه متحديا :

ـ لا داعى للتلاعب بالكلمات، إننى أتحدث تحديدا عن الإيمان بالله.

فصرخت فى وجهه :

ـ أنا لا أومن.

دخلت أم فتحى العاملة متسائلة :

ـ هل اذهب بسرير ٢٣ إلى المشرحة.

واجابتها راوية.

ـ وعند عودتك أحضرى لنا الساندوتشات.

وصرخت سناء:

ـ اغسلى يديك قبل أن تحضريها.

زينب فى صوت خافت :

ـ الأفضل أن تحضر الأكل قبل الذهاب للمشرحة.

واحتجت أم فتحى :

ـ هل سأذهب مرّتين؟

فقالت راوية :

اختارته كما تقول ذا بنيان جسمانى مرعب، فقد كان أبوها قد اختاره قبل ذلك لردع بعض من تسول لهم أنفسهم إثارة المشاكل فى مكتبه أو عدم دفع مؤخر الآتعاب، فى محاولة لإغرائه طلبت منه اللقاء فى حلوان، لكنها اكتشفت أنه لا يعرف إلا الشوارع الرئيسية فى وسط المدينة، وعندما اختار اللقاء فى ميدان أنور السادات عجزت هى عن معرفته حتى فهمت من الوصف أخيرا أنه ميدان التحرير. اتفقت معه على انتظارها فى ميدان التحرير للتوجه بعد ذلك إلى حلوان فالمكان هادئ ومناسب. يوم اللقاء كانت آمال تراقب من أسترا، وظل إبراهيم ينتظر أكثر من ساعة حتى جاءت راوية أخيرا، وهما يحاولان إيقاف سيارة للذهاب إلى مكان ناء فاجأهما الأب المدعى لراوية، فتصنعت راوية الارتباك والرعب وهى تدعى أمامه أنها كانت ستصطحب إبراهيم إليه فى المنزل لأنه يريد أن يخطبها منه، وازاء هياج الرجل وغضبه المخيف، أمّن إبراهيم على حديثها، وراوية تتوسل إليه أن يعفو عنها، والرجل يتحدث عن الشرف الذى يراق على جوانبه الدم، ويتساءل فى غضب كيف يذهب بهما إلى المنزل دون تمهيد، دون أن يحضر الأعمام والأخوال والأقارب ويعلم الجيران، توسلت إليه راوية أن يقبل بحل وسط، وهو أن يذهبا لمكان هادئ للتفاهم على التفاصيل وتحديد موعد للخطبة، وتسللت آمال إلى سيارتها كى تتعقبهم، وقف التاكسى، وفتح إبراهيم الباب الخلفى كى تجلس راوية وأبوها، وبمجرد أن استقرا فى جلستيهما صفق الباب بعنف وأطلق ساقيه للريح لا يلوى على شئ

نهضت فهتفت سناء فى ارتياع حقيقى :

ـ لن تتركناالآن. لم نتفق على هذا.

ـ سأمر عى المرضى، وأفحص أمين وأعود، هيا يا راوية.

ـ لماذا فعلت ذلك يا أمين.

يغشاه الصمت، ويتدفق داخلى طوفان حنان نحوه.

ـ عدنى ألا تفعلها مرة أخرى.

وانفجر باكيا:

ـ أردت أن أريح أمى من تعبى ومن مصاريفى، فليس وراءها فائدة.

ـ لا تقل ذلك، لقد اكتشفنا مرضك وسنجرى لك العملية وستشفى.

تمتم من بين شهقاته :

ـ إن شاء الله

لو لم يؤمن مثلك فأى عزاء له؟.

ومثلى؟؟!!.

زينب تمسك بإبرتى تريكو، تنسج نسيجا لم يكتمل قط، لكنها تخدع الآخرين، فما دامت تشتغل التريكو فهى لابد مبصرة، ومن يدرى، لعلها تنخدع هى الأخرى، على أن هذا الشئ الذى تنسجه لم يتعد الشبر فى طوله، أخبرتنى سناء أن هذا الذى نسج لم تنسجه زينب، إنما كانت تقوم هى خلسة، فتعمل فيه وهى راقدة على السرير المجاور لزينب التى لا تراها، ثم تعيده إل جوارها فى هدوء.

ـ هل قرأت خطاب أمين؟

ـ لا ياسناء، شُغِلت بالحديث مع عم يوسف.

علقت زينب بصوت خافت:

ـ كان سيخسر الدنيا كما خسر الآخرة.

استدارت سناء نحوها بحدة:

ـ لماذا ؟.

ـ لأن من يموت منتحرا يموت كافرا.

قالت سناء فى تبرم مشيحة بيدها :

ـ رحمة الله واسعة لأمثاله.

قالت زينب فى إصرار :

ـ إلا الانتحار فهو شرك بالله.

ـ لقد قرأت أنه ليس كل المنتحرين فى النار.

قالت آمال :

ـ لم أسمع عن ذلك ياسناء، أين قرأت ذلك؟.

ـ أظن فى صحيح مسلم، لكننى غير متاكدة، مارأيك أنتِ يا دكتور محمد؟.

ـ لا أدرى، وإن كنت أعتقد أن المنتحر أشد الناس حاجة للرحمة. فى ديانات عديدة، بعضها ليس قديما - كما فى اليابان - كان الانتحار يمثل أعلى مراحل العبادة والتكفير عن الذنوب.

ـ قالت زينب وهى تنظر فى اتجاه آخر.

- إن الدين عند ....

قاطعتها آمال :

ـ لماذا تصمتين يا راوية؟.

ـ لأنكم جميعا تتكلمون !. وأنا وحدى أعرف الحل. فلم يكن ليحاسب لأنه لم يبلغ بعد.

تساءلت آمال ضاحكة :

ـ اعترفى فورا: كيف عرفت؟.

قالت سناء وهى تضغط على مخارج الحروف كى لا تسقط منها:

ـ اعترفى فالاعتراف بالحق فضـ.....

ـ قاطعتها آمال صارخة :

ـ بل فضيحة.

فانفجرن ضاحكات.

وغمغمت زينب :

ـ خسارة، فقَدَ آخر فرصة كان يمكن له فيها أن يرتاح من الحياة دون حساب.

الدين عند الله الإسلام حقا يا زينب. رغم أننى أظنك تقولين ذلك بنفس الطريقة التى كان يقولها بها الأقدمون قربانا لوثن لا يأمنون غدره، لكننى واثق من صحة مقولات الإسلام، واثق بعد أكداس الكتب وآلاف الليالى أن قاطرته هى آمن الوسائل وأقدرها على الوصول بنا إلى نهاية الرحلة، لكننى أفتقد العزيمة لركوب القطار ولا أريد الرحلة كلها.

من المؤكد أن اللـه موجـود يا كـوثر، ذلك يقينيّ، حـتى إننى أشك فـى الوجـودات الأخرى وأظنـها مـجـرد ظل لـوجوده وحجابا يحجب وجهه عنا. بالأمس كاد عادل بلال، صديقى الذى لم أحب أحدا كما أحببته، كاد يضربنى لأننى قلت له ببساطة أننى لا أومن، لم يفهم أننى عندما أقول ذلك فإننى أعنى أننى كفرت بكل ما عـداه لا بـه، فى رسالـة أخرى سأكتب لك تفصيل أحد حواراتنا. أتساءل أحيانا هل يمكن أن يجود الزمان علىّ بإنسانه لـها ثقافة عادل، وروحك، وخفة دم آمال، وأن يكون لـها بعد ذلك كله ظروف سناء، ساعتـها كنت أتزوجـها على الفورمتراجعا عن إضرابى القديم عن الزواج، كما أننى كنت سأشعر دائما أننى أعطيت ولم أخذ.

انفجرن ضاحكات مرة أخرى، فتساءلت :

ـ علام تضحكن، أشركننى.

فهتفت راوية:

ـ لا نستطيع. ربما تستطيع الدكتورة آمال.

وأطرقت سناء وزينب مغالبات الضحك فقالت آمال:

ـ أعمال حرة من تحت السرة !!

وانفجرن ضاحكات

فى وجود آمال تتصنع سناء المرح وتسرف فيه، تسمينى أخاها لكننى آعلم أنها تحبنى حبا مشلولا كجسدها، شلل قد يمنع الأمل لكنه لا يدفع الألم

والغيرة، ربما تحس أنها الأقرب إلى مشاعرى، لكن آمال هى الأجدر بى، فقط لأنها ليست مشلولة.

بنفس المرح المصطنع كانت تحكى ما حدث لها، حين كانت تقدم مشروبا لخطيبها فى المنزل فسقط الكوب من يدها، ظنت الأمر عارضا لكنه استمر، سعت إلى الطبيب فى مستشفى الطلبة فسمع منها فى نصف دقيقة وشخص الحالة على أنها توتر نفسى خاصة مع اقتراب امتحاناتها للسنة النهائية فى كلية الآداب، أثناء الامتحانات تدهورت الحالةحتى كان الأقارب والخطيب يحماونها إلى اللجنة حملا، وطبيب مستشفى الطلبة يرفض إدخالها المستشفى لشكه أنها متمارضة وتريد الدخول لعقد لجنة خاصة للإمتحان، نجحت بمعجزة، وسعت إلى عيادات الأطباء، وتم التوصل إلى تشخيص المرض بعد فحوصات سببت لها ألما لا يوصف، التهاب بالنخاع الشوكى، حاولوا تخفيف الأمر عليها وإخفاء الحقيقة عنها لكنها استعانت بخطيبها فأحضر لها كتبا فى الطب من بعض معارفه، وكانت دراستها الانجليزية تمكنها من فهمها، مرض لا يعرف له سبب وليس له علاج، ويأتى فى نوبات تتزايد حدتها حتى الموت، صارحت خطيبها بالأمر وأحلته من الخطبة فبكى كثيرا معاتبا ومؤكدا أنه معها حتى الموت، لكنه عندما ذهب لم يعد مرة أخرى. واضطر الأهل باكين إلى إخبارها بالحقيقة عندما حضر من يسترد الشبكة والهدايا.

صاحت سناء :

– وعدتنا بالسهر حتى الفجر.

– يوم آخر يا سناء، فقد كان اليوم مجهدا جدا.

- أى يوم آخر، ستضيع الأسبوع علينا، لن تكون نوبتجيا إلا الاثنين والأربعاء أما الجمعة فليس دورك.

ثم مردفة:

- ليتك تأتى الجمعة حتى نقول لك كل سنة وأنت طيب.

حتى أنت يا سناء، الكلمات تذبحنى فلم تذكريننى، لقد قلت لك، أخبرتك، لماذا لم يصل إليك كم يكون عذابى فى هذا اليوم، أبدأ من الصباح، الساعة ٨ر٥ صباحا، طوفان الغارات الأولى، هل مات فيها أبى، وكيف ؟. سناء لا تريد التوقف عن الكلام، كأنها تربطنى بخيوطه، تبدو كطفل عاجز على وشك أن تتركه أمه، لكنها وهى تفعل ذلك لا تكف عن تذكيرى بالجمعة ٥ يونيو. أذكره يا سناء، أكاد لا أذكر سواه، والجمعة القادم عرس انتقام تأخر ربع قرن.

قالت آمال:

- خذنى معك، سأمر علن إبراهيم كى أقنعه بأن يقوم بعملى هذه النوبتجية أيضا ثم أذهب إلى بيت الطبيبات لأنام.

على وجه ما أدركت أن آمال تدرك ما بى وتخلصنى.

وجه سناء يتقلص بالألم، كأنها تمنت ألا تنصرف آمال معى. ألا نتحدث بما لن يقدّر لها أن تعرفه أبدا.

أخذت زينب تلملم خيوط الصوف التى تعقدت تماما، حتى لم يعد ثمة

أمل فى إصلاحها، ومدت سناء يدها المرتعشة ـ وهى ترمقنى آسية ـ بالمقص لتقطيع الخيوط ثم تطلب من زينب أن تريها عمل اليوم. وتأخذه منها لتصلحه، بأصابعها المرتعشة.

يمتد البهو الطويل أمامنا، وثمة أضواء شحيحة لمصابيح كليلة تنفذ إلينا من النوافذ، أما داخل الرواق نفسه فحيثما توجد مصابيح يوجد ضوء، قالت آمال معابثة:

ـ رفقا بالعذارى، سناء تحبك، حتى تغار عليك منى، وراوية تتمناك زوجا، لم يبق إلا أم فتحى!!

يخيم سكون يخرقه الإيقاع الموسيقىّ لكعب حذائها، وأنات مبهمة غامضة مختلطة بدت وكأنها تأتى من أبعاد سحيقة حتى لقد فقدت تميزها البشرى كأنما تصدر عن الألم ذاته.

واصلت آمال:

ـ أم فتحى وأخريات حدثن راوية عن ممرضة فى نفس القسم كان أسمها أيضا راوية، كانت جميلة مثلها، ألقت شباكها على طبيب فتزوجته، لتصبح اليوم زوجة الوزير، بعدها توقفت راوية عن العبث، وقطعت علاقاتها القديمة.

ـ لكنها مازالت لعوبا.

ـ مساكين، كيف تطلب من محروم أن يكون سويا.

ـ سناء سألتنى لماذا لا أتزوجك.

ردت ضاحكة:

ـ بيدى لا بيد عمرو، ماذا قلت لها.

ـ لم أخبرها بأننى عرضت عليك الزواج على سنة سيمون وسارتر فرفضتِ.

قالت ضاحكة :

ـ أتنازل عن هذا العرض لكوثر، ترى ما هى أخباركما ؟.

ـ نتبادل الخطابات كل أسبوع تقريبا، ونتحدث فى كل شئ.

ـ أظنك ـ والله أعلم ـ قد بدأت تحبها، فقد كففت عن إعطائى خطاباتها لك لأقرأها.

ـ لا، قيمة كوثر بالنسبة لى فى أن تظل علاقة فكرية وروحية صافية.

ـ ألا تشعر حتى بالفضول لمعرفة شكلها، بيضاء أم سمراء، طويلة أم قصيرة، قبيحة أم جميلة.

ـ بل أصر على عدم معرفة ذلك، ولذلك رفضت بإصرار تبادل الصور معها.

ـ أنا مندهشة تماما من تصرفك، ألم تشك أبدأ أنه يمكن أن تكون غير موجودة، أو أن تكون رجلا، ثم هل يمكن أن تكون علاقة مع عضو فى إنسان دون باقى أعضائه.

ـ وجودها البشرى لا يهمنى، هى موجودة كفكرة، وما نتبادله أفكار عميقة وأحاسيس صادقة بغض النظر عن أى شئ آخر، ثم إن العلاقات البشرية كلها مبنية على العلاقة مع عضو واحد، ولقد فعلت نفس الشئ لكننى اخترت أن يكون هذا العضو معنويا.

ـ الحقيقة أن . . .

ـ أن ماذا . . .

بدا كما لو أنها أرادت أن تقول شيئا ثم عدلت عنه، فقالت :

ـ أحيانا أحس أننى لا أفهمك مطلقا، على العموم فهى بديل لا بأس به بعد قطيعة عادل بلال.

ـ ....

ـ لماذا لا تذهب إليه معتذرا.

ـ ....

ـ لا تريد الحديث فى هذا الموضوع الآن، لا بأس، لنتحدث فى شئ آخر، انتهيت من الجزء الثانى للحرب والسلام، قلبت مكتبات المدينة بحثا عن الجزئين الثالث والرابع لأننى أموت شوقا لقراءتها.

ـ قلت لك أنك لن تعثرى عليهما، لا مفر من قراءتها بالإنجليزية كما فعلت.

ـ ماذا تقرأ أنت الآن.

قلت ضاحكا :

ـ أشياء لا تسر.

ثم أردفت :

ـ التاريخ وابن رشد، ونجيب محفوظ بالإنجليزية، أعيد أيضا قراءة موسوعة محمد حسنين هيكل: «حرب الثلاثين سنة».

ـ ليس هذا غريبا على من ينتشى بتعذيب نفسه !!.

كنا قد وصلنا إلى مدخل الاستقبال فقلت لها أننى لن أطيق رؤية إبراهيم مرتين فى يوم واحد :

ـ حتى ولو من أجلى؟.

ـ حتى ولو من أجلك، فما قيمة العسل وفيه ذبابة.

قالت ساخرة وهى تلوّح مودعة:

ـ تحوم حوله وليست فيه إذا سمحت.

أتوجه إلى سكن الأطباء بقلب مثقل.

ـ مساء الخير ياعم يوسف.

كان نائما وهو جالس أمام التليفزيون الذى يذيع قرآن الختام.

ـ أطفئ التليفزيون فإننى سأنام.

أمرك يا باشا، فور أن ينتهى المقرئ.

كان وجه عادل بلال يتقلب بين الزرقة والحمرة. أبدا لم أره غاضبا مثل ذلك اليوم، كان خالد عبيد ـ الذى لا أعرفه تقريبا ـ قد مات فى حادث سيارة، وأصر عادل بلال على أن تقيم له اللجنة الثقافية حفل تأبين، واجهه الشيخ حسن كما يطلقون عليه بأنه وبقية المسلمين يرفضون ذلك، فخالد عبيد كان علمانيا كافرا ولا يجوز قراءة القرآن ترحما على روحه، قام عادل وحده بالمهمة، ونصب الصوان الى جوار الكافيتريا وجئ بالقارئ لكن جماعة حسن ومنهم إبراهيم أبو شنب وقفوا بالمرصاد محذرين الطلبة من المشاركة، فاستجابوا، وما أن بدآت التلاوة حتى قطعت الكهرباء عن

مكبر الصوت، وانطلق من الكافيتريا صوت ستيريو زاعق لموسيقى راقصة، كان حسن عبد الفتاح يجلس فى الكافيتريا فى مواجهة الصوان مبتسما فى كبرياء وشماتة، وإبراهيم يتحرك فى نشاط جم.

ونحن نعبر فرع النيل بين المبنى الجديد الذى أصبح قديما والقديم الذى سيصبح جديدا قلت لعادل في محاولة للتسرية عنه :

ـ الوضع كله بلا معنى، ابتداء من موته، ومرورا باصرارك على تأبينه وانتهاء بموقف حسن.

كنت أقاوم ضحكة صاخبة داخلى فلم تخل المفارقة من وضع فكة. كنت أعرف أيضا موقف عادل الشاك تجاه حوادث السيارات وما شابهها بالنسبة لمن لهم علاقة بالسياسة، خاصة لما أشيع عن اتجاه الأمن للتصفية الجسدية لأعدائه، كنت أريد أن أقول له أنه على فرض صحة الشائعات فان المستهدفين الآن آل حسن لا أعدائه. لكننى صمتٌ فجاة عندما وجدت طوفان دمع صامت ينهمر من عينيه.

ماذا تفعل جدتى الآن، ألا يمكن أن تكون قد ماتت فى نفس هذه اللحظة التى أذكرها فيها، تموت قبل أن أحقق حلم اليقظة الذى أفنيت فيه عمرا حين أدخل عليها صارخا وقد تملكنى ما هو أشد من الجنون: جدتى، هاهو ذا أبى قد عاد. ثم أغرق فى أحلام يقظتى، وهى تحكى لأبى أنه لم

يصدقها إلاى. ظنوا بها الجنون لكننى وحدى ـ لأننى ابنه ـ صدّقتها.
ياجدّة، موتى قبل أن تتيقنى من موته.

توسدنى جدتى صدرها ولا أعلم من أين ولا الى أين لكنها
تربت علىّ فى اهتزازات رتيبة مغنية بصوت أجش: بابا
زمانه جى جاى بعد شوى جايب لك لعب وحاجات. يتسلل
النوم الىّ وأنا من الاطمئنان فى غاية لكننى أستيقظ فى
غرفة نوم فى بيتنا القديم على همهمة خافتة ممتدة تتسرب
الىّ من خارج الغرفة، أهرع الى الخارج مفزوعا لأجد فى
فناء البيت مئات الناس جالسين على كراسى مصفوفة،
أخذت أنظر اليهم فى ريبة وتوجس، فوقفوا جميعا، ووجدتنى
أسلم عليهم واحدا واحدا فيغمغمون وأغمغم، كانت ملامحهم
شديدة الوضوح حادة التفاصيل، يلبسون ثيابا صوفية سميكة
وأغطية للرأس يبدو أثر المكواة فيها حادا متمثلا فى انبعاجين
وانخسافين. أخذت أتساءل فى سريرتى عما جاء بهم. هل
جاؤوا فى فرح أم فى مأتم؟. وكما لو أنهم سمعونى دون
صوت فقد سمعت همهمتهم الخفيضة الريضة:
ـ المسكين كان نائما، لا يعرف أننا جئنا نعزيه فى إبيه.
انطلقت صارخا إلى البيت، كانوا كلهم هناك إلا أبى،
ملامحهم مطموسة حتى أننى كنت أميزهم بمجرد إحساس

داخلى مبهم، على منتصف الدرج كانت جدتى تقف، هتفت بها :

- لماذا لم توقظينى يا جدتى كى أرى أبى قبل أن يموت.؟

كأنها لم تسمعنى، أو لعلها كانت ترد على سؤال طرح قبل دخولى :

- مات بين يدى، طلب الماء فأعطيته، أوصانى ألا أكشف السر أبدا. ثم مات

تحولت عنها إلى أمى وأنا أصرخ فيها :

- لماذا لم تخبرينى أن أبى قد مات.؟

لم تجب، ومدت يدا الى الفراغ وسحبت منه شيئا فانسدل أمامها ظلام رهيف، فزعقت:

- ماذا تخفين عنى ياأمى.؟

لم ترد، فتوجهت الى اخوتى فأشاحوا عنى، فانطلقت الى زوجتى:

- كيف لا تخبرينى أن أبى قد مات.؟

فأجابت فى رعب:

- كنت نائما وخشيت أن أوقظك وأنت متعب فتغضب منى.

صرخت وأنا من الغضب والحنق فى غاية:

- هل جننت.؟

كانت واقفة على باب المطبخ تمسك سكينا ضخما تقطع به لحما، لا يقطر منه دم فاجتاحنى رعب أنه لحم أبى، فهجمت

عليها أبغي ذبحها خلصوها مني فهمست وهي من الأسى في غاية :

ـ اذا قلت لك الحقيقة هل تصدقني.؟

ـ قولي الحقيقة فورا.

ـ عندما مات أبوك لم أكن أنا ولم تكن أنت أيضا قد ولدت فكيف أقول لك .؟ ثم أنني لست زوجتك.

قالت هذا وانطلقت في لمح البصر فتعقبتها، نزلت على السلم فانطلقت إلى المصعد وأنا في غاية الدهشة لأنه ليس في بيتنا مصعد، لكن التفكير في ذلك غير مهم الآن، وبدأ المصعد يهبط ويهبط حتى فقدت الإحساس بهبوطه، وفجاة تلاشت جدرانه ووجدت نفسي معلقا في الفراغ، فقلت لنفسي لابد أنها منطقة انعدام الوزن فارتعبت لأن خاطرا قد خطر لي أنني سأظل إلى الأبد هكذا لا أموت ولا أحيا. وفجأة رأيت سناء مكتملة الصحة فهتفت فيها في فرح حقيقي: متى شفيت، لكنها لم ترد على فغضبت، واندفعت نحوها ثم أمسكتها وهززتها لكنها لم تهتز، وأدركت بمرارة أنه لم يعد لي جسد، وأنني مجرد ظلّ، صوتي لا يسمع، ولمسي لا يحس.

فجاة رأيته، متكئا على صخرة والدماء تغطي وجهه وملابسه، والشمس نار لافحة موجهة اليه فكأنها ما خلقت إلا لتتسلط عليه، أما حوله، بعيدا عنه، عندي، فظلام ظلام،

أردت أن أنبهه، أن أناديه، لكن صوتى احتبس، وعلى الرغم من ذلك فقد أدركت أنه يفهم ما أريد، عندما اشار بيده، رفعها ببطء ويأس وألم لا يوصف، ثم أشاح، كأنه يبعد بها شيئا، يلفظه، كأنه يتكلم بها وينطق، ثم اختفى، ووجدت سناء وقد عادت مشلولة تنظر إلى بأسى فقلت لها أنا الذى آسى لك فقالت بل أنت لا تعرف قلت أعرف ماذا، فقالت هل تعرف من الذى جاء مصابا إلى الاستقبال اليوم فنفيت فأجهشت فى البكاء وهى تقول إنه أبوك ففزعت وجريت إلى الاستقبال فوجدت آمال تسآل إبراهيم ماذا قالوا لك بالضبط فصرخت فيها أبى يا آمال فقالت فى برود ذهبوا به إلى المشرحة ثم معابثة سيذهب إبراهيم الليلة إلى هناك فجريت الى المشرحة وأردت الدخول لكن الشاويش أمسكنى وهو يصرخ فىّ هل معك بطاقة، ومد يداه فأخذ يخنقنى وأنا أتوسل إليه أن يتركنى لكنه يصرخ فاختنقت ثم صحوت وأنا من الكرب فى غاية.

عم يوسف أحضر المجلات والصحف.

ـ كوبا من الشاى يا عم يوسف.

ـ تحت أمرك يا باشا.

ـ صباح الخير يا نصحى.

ـ صباح النور يا سعادة الباشا.

ـ هل انصرف عم يوسف.

ـ نعم، أحضر الإفطار والجرائد ثم تسلمت العمل منه.

فرص عمل جديدة لخمسين ألف خريج.

لو جمعنا الذين عينتهم الصحف لانتهت البطالة فى العالم.

أم تقتل ابنها وتدفنه فى صحراء الهرم بالاشتراك مع عشيقها.

«.... أم تقتل ابنها وزوجها الأول بالاشتراك مع زوجها الثانى ....»!!.

يسحب أربعين مليون جنية من البنوك ويهرب.

مؤسسة كبرى تطلب وجوها من الجنسين للتمثيل فى السينما.

الجنود الإسرائيليون يضربون فلسطينيا حتى الموت.

«والجنود المصريون بقيادة خالى، كم مصريا قتلوا».

خسائر الانتفاضة ألفا شهيد.

منظمة حقوق الإنسان تدين التعذيب الوحشى للمعتقلين السياسين فى مصر.

محكمة إسرائيلية تحكم على ضابط عذب فلسطينيا حتى الموت بالسجن ثلاثه شهور.

نيابة أمن الدولة تطلب الإعدام للمتهمين.

المجاعة تهدد ستة ملايين سودانى.

عشرة مليارات دولار لإسرائيل لتوطين المهاجرين.
أضخم إنتاج سينمائى فى التاريخ.

مطلوب التبرع بكلية فصيلة O -V E.

مناشدة لوزير الصحة.

قلت لعادل مستفزا : أنت تؤمن من أنه رسول ونصحى يقول انه ابن الله وقاتلوا أبى يقولون بل ابن جندى رومانى، لكن هل تصدق حقا انه وجد دون أب، وأجاب ببساطة : كيف تنكر خلقه دون أب وجدك الأول خلق دون أن يكون له أب ولا أم، فبهتّ.

ينتهون من إفطارهم فيسألنى أحد هم إن كنت سأصحبهم فى النزول أم سأذهب وحدى، بل سأذهب وحدى فالصمت قاس لكنه مغطى بالكلام اشد قسوة.

بعد المرور قال الأستاذ المساعد :

- رئيس القسم يسأل عنك ويريدك، إذهب إليه فى العيادة مساء الخميس القادم.

بكى أمين كثيرا وهم يحملونه إلى قسم جراحة الأعصاب، لم يتوقف إلا بعد صعود سناء معه.

فقدت خطاب وداعه.

أكملنا المرور على المرضى ومراجعة العلاج، ثم انصرف المدرسون فور انصراف الأستاذ المساعد، وانصرف المدرسون المساعدون فور انصراف المدرسين، وانصرف النواب فور انصراف المدرسين المساعدين، وانصرف أطباء الامتياز فور انصراف النواب، وبقيت أنا والطبيب المناوب.

طلبتنى سناء:

- دكتور محمد، أنا آتى إلى هنا منذ سنتين للعلاج، وهناك توصيات كثيرة بشأنى فلم يطلبونى للامتحان أبدا، عندهم كثيرون يتمنون ذلك، أنت تعرف، بعض المرضى يعتمدون على ما يتقاضونه من طلبة الامتحان لنفقاتهم طول العام، لكنه شئ مهين جدا، لا يمكن أن يحدث لى.

- وما الذى جعلك تظنين أنهم سيكسرون القاعدة هذه المرة.؟

- المدرسون المساعد فحصنى بصورة جعلتنى أشك، ولما سألته لم يجب.

سناء لم تعرف بعد رغم طول إقامتها نوع العلاقة المرضية التى تربطنا بمن هم أكبر منا، علاقة السيد بالعبد، راوية بغمزة عين تستطيع مساعدتها

أكثر مني، فقط لأنني وعدتها اتصلت بالمدرس المساعد فأبدى استياء عظيما، مقررا أن هذا أمر لا أحدده أنا ولا أنت بل رئيس القسم نفسه.

بين المدرجين ألقى آمال فتعتذر عن الجلوس :

ـ أريد أن أنام.

ـ ألم تنامي أمس.

ـ في سكن الطبيبات؟، وكيف، تضافر عليّ البق والناموس ..

ثم ضاحكة :

ـ وأنت، فلم أنم حتى الصبح.

أصاحبها حتى شارع القصر العيني :

ـ أحسدك على بيتك، بجوار المستشفى فلا تعاني مثلنا من المواصلات.

ـ يمكنني احتمال إقامتك معي.

ـ فردت ضاحكة:

ـ لكنني أنا لا أحتمل.

قلت لها جادا :

ـ كلما طرق الباب تخيلتك قد قبلت دعوتي وأتيت.

توقف سيارة تاكسي وتقفز فيها كفراشة وهي تلوح لي، وإذا بحسن عبد الفتاح على محطة الأتوبيس ينظر نحوي شزرا فأتجاهله.

لم أكن أكرهه كما يكرهه عادل حتى حضرت حوارا له مرة جعل فيه من قتلى أفغانستان شهداءأما قتلانا في حروبنا مع إسرائيل فقد ماتوا على الكفر تحت قيادة الطاغوت. يا

طاغوت يا ابن الكلب.

ويوما أشار إليه عادل قائلا :

ـ عندما أراه يخف عجبى من جموحك، فلابد أنك رد فعل لمثله.

ـ لا يا عادل، لست رد فعل لأحد، لكننى اكتشفت انه مامن صواب، مامن كلمة حق واحدة، الصحيح اليوم كان بالأمس جريمة وسيصبح غدا تخلفا مضحكا، ضع حسن فى عصر المماليك تجده بطلا تقدميا وضع قاسم أمين فى عصرنا تجده متخلفا رجعيا.

صمت طويلا ثم قال فى عذاب :

ـ أتخيل أن الإسلام أعطى شهادة النضج للبشرية لكنها لم تستغل نضجها كما يجب، أمثال حسن يعتبرون الإسلام نهاية والأولى أن يكون بداية. تخيل أنك بعد حصولك على البكالريوس اعتبرت ذلك نهاية الطب والعلم وتجمدت، بعد عشرين عاما ستكون معلومات أى ممرض أفضل من معلوماتك.

أقضى الليلة فى بيتى، أو على الأحرى بيت أبى. بيت أبى وبيت جدتى وبيت أمى، أما أنا فلا بيت لى. شقة جيدة فى عمارة بنيت فى أوائل الخمسينيات فى شارع القصر العينى، استأجرها جدى لأبى عندما دخل كلية الطب، حمدا لله أن أمى لم تمكث فيها طويلا وإلا أخذتها لزوجها.

تطل الشرفة على دار الحكمة، وكانت أيام أبى تطل عى النيل أيضا لكن ارتفاع العمارات فى جاردن سيتى حجبته عنها، حمدا لله على ذلك أيضا وإلا لرأيت نفس المياه التى تمر على سفارة قاتليك. لماذا متّ إذن مادام الأمر قد انتهى لهم بسفارة، لو تقدّم الصلح على ٦٧ لكنت الآن حيا، ولو استمرت عداوتهم لكان لموتك مبرر، فلماذا متّ إذن. أحماقة استعراض قتلتك أم خيانة تفريط جعلت موتك بلا معنى.

أحاول تجنب النوم الآن، وإلا افترسنى الأرق فى الليل، حين يكون النوم مشكلة عسيرة الحل، حين أحاول وأجرب وأجوب الآفاق ثم أعود ويقظنى أشد، وعندما أنجح أخيرا فى ولوج أبوابه أستيقظ فجاة فى جوف الليل، أتوه فى دروبه، أضيع، أموت.

استضافتنى أمى وأنا أقدم أوراقى لمكتب التنسيق :

– هذا مكانك يا بنى، هذا بيتك، ستكون لك غرفتك الخاصة وحمام خاص.

«لست ابنك، ولن تستطيع بالحيلة أخذ شقة أبى كما أخذت امرأته، ربما لتجعل من منزل الشهيد بيت دعارة».

– بل سأقيم فى شقة أبى.

– يا بنى من سيعد لك طعامك ويرتب فراشك ويغسل ملابسك وينظف المكان.

«لست ابنك أنت أيضا. ولست أمى. ماذا تعرفين من أمرى».

- المكان هناك قريب من الكلية يا أمى، والمواصلات إلى هنا بعيدة، ومازالت جدتى لا تسمح لى باستعمال سيارة أبى.

- لقد انتظرت هذه اللحظة منذ خمسة عشر عاما، اللحظة التى يلتئم فيها شملنا مرة أخرى.

«هل أنا الذى ابتعدت وخنت. ثم أن لك أبناء آخرين الآن، يعزونك عن فقدى إن كنت حقا فى حاجة إلى عزاء، أما أنا فلم يكن لى أم أخرى».

وخار الثور:

- أنت تدللينه، ليس فى سن يسمح له بالاستقلال الآن. هذا سن خطر والمجتمع يغوص فى الانحراف والمخدرات، خاصة مجتمع الطلبة.

ثم موجهها الحديث إلىّ فى حزم:

- إذهب يابنى وأحضر أشياءك فستقيم معنا.

«يا بن الكلب ياجبار ياقاس».

«أتظن صمتى خجلا وضعفا؟ بل اشمئزازا منك ومن أمرأتك».

- آسف، سأقيم فى بيت أبى يا زوج أمى.

- زوج أمك؟. أنا خالك.

- بل زوج أمى وهذه صفة تدعونى للبعد عنك.

أفضل طريقة لتجنب النوم أن أعد طعاما لعشاء اليوم وغداء وعشاء يوم الثلاثاء.

أقشر البطاطس وأقطعها، وأعصر الطماطم وأصفيها، أغلى اللبن وأنقى الأرز وأغسله، أبشر البصل وأدق الثوم.

مـــاذا تعرفين عنى الآن، بعد هجرانك لى، وبعد أن جف دم الشهيد وسأم الأقارب إصرار جدتى على عودته، وشح الخادمات وانقلاب المجتمع، وشيخوخة جدتى، وقبل عودة عمتى أصبحت أنا ربة البيت بدلا منك.

أدير الغسالة، وأكنس الأرض وأنظف السجاجيد، أخرج الفراش إلى الشرفة للشمس. تجاور شرفتى شرفة جارتى التى لم أعرف أسمها حتى الان رغم كل ما حدث. اكتفت بإعطائى ظهرها، ظللتُ عاما بعد الفضيحةلا أراها، ثم كانت تهرب منى كما لو كنت الشيطان نفسه،شيئا فشيئا بدأت تنظر إلىّ بعينين تطفحان غضبا وغيظا، ثم احتقارا، ثم سبابا توجهه فى الظاهر لأبنائها أو للزمن وعلىّ أن أفهم، ثم برد كل شئ وتلاشى، ولم تبق إلاّ الذكرى.

على أنه لولا هذه الواقعة، وانتشار قرابتى لضابط كبير بين الجيران لما تيسر لى بعد ذلك أن أفعل ما فعلت، ولما انتهى الأمر بشوشو أن تعتبر بيتى بيتها، الداعرة ابنة الداعرة تتوسل إلى أن أطيع عادل بلال، أن أعرض نفسى على طبيب نفسى. لشدما ضحكت حتى دميت من رعبها وأنا أحطم الأكواب وأقلب الأثاث – كنت حريصا على الا أحطم شيئا ثمينا – ثم أقفز فى جوف الليل على إفريز النافذة مدليا ساقى وهى تصرخ فى رعب ليس من أجلى وإنما خوفا من أسئلة البوليس بعد انتحارى.

ـ ألست مجنونا، كل شئ إذن مباح.

ـ أتوسل إليك، أقبل قدمك، أرجوك.

ـ إذن تخرجين الآن فورا.

ـ أين أذهب والساعة الثانية صباحا.

ـ إعمل معروفا، حتى الصباح فقط ولى أعود مرة أخرى.

ـ إذن سأقفز.

ـ بل سأذهب.

ـ لن أنزل إلا بعد ذهابك.

أخذت أقهقه وهى تلملم أشياءها، متلكئة كأنما تنتظر أن أثوب إلى رشدى، وكلما نظرت إلىّ، أتيت بحركة بهلوانية تجعلها تشهق رعبا، سمعت صوت الباب الخارجى يصفق فنزلت، أخذت أقهقه قليلا ثم انفجرت باكيا، يالها من نشوة أن يبكى الإنسان وحده، طال بكائى، وارتفع صوتى الذى لم أحرص على كتمانه، فإذا بها تندفع داخلة إلىّ :

ـ لم كل ذلك ياحبيبى.

همست مفاجأً :

ـ ألم تذهبى

ـ كيف أتركك فى هذه الحال وأذهب، أغلقت الباب بصوت ثم تسللت إلى المطبخ حتى أطمئن عليك.

ـ هل تعلمين أنك يمكن أن تكونى أختى.

ـ أنا أختك وحبيبتك.

- لكنك لا تفهمين ما أقصد.

وعندما ذهبت فى الصباح لم تعد مرة أخرى.

أحس أحيانا بالحنين إليها وأحيانا بالرغبة، أتمنى كثيرا أن ألقاها فى شارع سليمان صدفة، حيث رأيتها أول مرة عن طريق القوادة الشمطاء.

انتهيت من كل ما يمكن عمله فى المنزل، وما زالت السادسة مساء وما يزال النوم يرنق فى عينىّ.

لا مفر من النزول إلى وسط المدينة، أدب على طرقات حفظتها، ارتسمت تفاصيلها فى مخيلتى حتى لأستطيع لو شئت أن أسير فيها مغمض العينين ومع ذلك فكل شئ غريب عنى غريب علىّ وأنا غريب عنه. يلتف النهار الراحل حولى كأفعوان، ينفث السم فى عروقى، يمتصنى، يهدرنى، لكنه بالرغم من ذلك لا يميتنى، إن كنت هكذا والليل لما يقبل فماذا أفعل حين يوغل وتنفرد بى وحوشه، فلأستعن عليه إذن بدخول السينما، اشتريت التذكرة دون أن أعرف اسم الفيلم، أجول فى شوارع المدينة، أرتشف الشاى فى الأمريكين وأشرب القهوة فى جروبى، اشتراه ثرى من المتدينين لكن لاشئ تغير، لمحت عجوزا تمر فى الشارع فظننتها القوادة فهرعت إلى الخارج لأدرك أنها ليست هى، الثامنة مساء، الزمن ثقيل، والقيظ ثقيل، والناس ثقال وأنا ثقيل، وعادل بلال هو الآخر ثقيل، يوم كهذا كنت أسير فى شارع سليمان عندما سمعت صرير عجلات سيارة مندفعة تكبحها فرامل قوية لتصدر صفيرا مشروخا كنواح من أعماق القلب، نظرت فوجدت امرأة

عجوزا ملقاة أمام السيارة فهرعت إليها، ساعدتها حتى نهضت هاتفة فى فزع « أنا بخير، لم يحدث شئ »

مضى قائد السيارة بعد أن انطلقت قذائف سباب بذئ من فمه، كانت المرأة ترتجف من الشيخوخة والخوف «لا تخافى ياجدتى، هل تحسين بالم» « لا »، اكتفى السائرون بإلقاء نظرة لا مبالية، ولم يتوقفوا. أخذت بيدها كى تعبر الشارع، أخذت تكيل الشكر والمديح لى ثم أصرت على دعوتى على كوب من العصير، قبلت الدعوة ودفعت الحساب.

ـ أريد أن أكافئك على شهامتك.

ـ لم أفعل شيئا ياجدة.

فوجئت بها تصر، داعبنى فضول عابث فسايرتها كى أسبر الأغوار، فهمست وهى تعرض ماالديها، فتيات من كل الأعمار، مصريات سوريات فلسطينيات فرنسيات انجليزيات أمريكيات أو حتى إسرائيليات، المكان موجود إن لم يكن لدى، يوجد أيضا ثيب وأبكار إن شئت، بالإضافة إلى أنواع خاصة من الخدمات توافق كل هوى.

اعتذرت، ألحّت، هذه المرة على حسابى، أحسست بتقلص عنيف فى معدتى ثم بدأت أقئ، تلفتت حولها فى فزع وهى تعطينى صحيفة معها أغطى بها قيئى، أخذت الصحيفة، راجيا فى دعابة لنفسى أن تكون بها صورة خالى، لكن ما التقطته عيناى كان دعم عربى للعراق ... أسر ٥٠٠٠ إيرانى، السلطات الإسرائيلية ....، وصورة لمسئول تتصدر الصفحة الأولى.

عندما فرغت كانت قد مضت.

ضحك عادل قائلا :

ـ إنها قوادة معروفة.

لماذا يتقبل الآخرون كل شئ ببساطة بينما يدمى قلبى.

ـ كلهن خائنات يا عادل، كلهن داعرات.

أجاب ساخرا :

ـ حتى جدتك.

فرددت بذهول :

ـ حتى ماذا ....؟!

جدتى ليست امرأة يا أحمق.

بعد أن فضت جارتى بكارتىَ سعيت إلى العجوز:

ـ أريدها إسرائيلية، لكن بشرط ألا تكون مصابة بالإيدز.

وكانت شوشو. تحدثت فى البداية بالعبرية التى لا أفهمها، ثم بالفرنسية التى أعرف منها القليل، ثم بالإنجليزية، لكنها بعد توطد العلاقة تحدثت العربية وبلهجة القاهرة لأكتشف بعد ذلك .....

التاسعة والنصف مساءً.

هرعت إلى السينما.

الجريدة العربية.

الرئيس يفتتح، الرئيس يقابل، الرئيس يخطب.

أنت أكبر من أبى، هل عرفته، هل عمل مرؤوسا لك، يإلهى، إننى لا أعرف فى أى سلاح جُنِّد ابى واستشهد كما لا أعرف فى أى سلاح كنت أنت قبل الطيران. لن أعرف أبدا إن كنتما التقيتما. ماذا كنت تفعل به لو

أنه قال أيامها ما تقوله أنت الآن، لماذا لم تقله قبل موته، ربما لو قلته مامات، أتخيله يقول نفس الذى تقوله أنت الآن وأنت قائده، يأتى إليك متوسلا، يا سيدى هذه حرب لاناقة لنا فيها ولا بترول ولا جمل، لنقف على الحياد بين الإسرائيليين والفلسطينيين، إنهم أقوياء ولا طاقة لنا بهم ونحن منهارون لانجيد سوى التناسل، ياسيدى زوجتى حامل وقد حان وقتها وأنا أريد أن أرى ابنى، وأراهم قد عقدوا له محكمة عسكرية ثم أراه مصفدا فى شاهد والبنادق مصوبة إليه معصوب العينين، وقبل إطلاق الرصاص يقول فى صوت رهيب: سوف تصالحونهم، أبناؤكم سوف يحاربون العرب من أجلهم، لكن ابنى سيكون يتيما، ثم مع دوى الرصاص يصرخ صرخة تصم الآذان: لا تجعلوا ابنى يحارب معكم.

أدقق النظر فى قائد فرقة الإعدام، هذا وجه أعرفه، فى اللحظة التى أطلق فيها الرصاص كنت أولد لكننى عرفته. سيدى هل تعرف زوج أمى!؟. لاريب تعرفه، لو لم يمت أبى وتحترق الأوبرا أكنت ستعرفه؟. أم لعلك تعرفه قبل ذلك كله. لعلك تعرف أيضا مالم أعرف وما لن أعرفه أبدا عن موت أبى، كيف وأين ومتى بالضبط. هل أقوم من مكانى لأخترق الجدار وأسألك، لكن، حتى لو كنت عرفته، هل ستذكره، إنهم ليسوا واحدا وليسوا مائة وليسوا ألفا، إنهم مائة ألف.

يبدأ فيلم الكارتون.

لو أننا كنا مثل الميكى ماوس!! نصطدم ونتحطم وننسحق ونتهشم لكننا لا نموت أبدا. لو أننا كنا مثله، لكان أبى قد كشف لى السر، كيف وأين ومتى بالضبط.

العرض القادم. من من الموجوديين سيكون حيا كى يراه ومن يموت.

بدأ العرض، رجال يخونون ونساء يخن، ورجال يخانون ونساء يُخنّ ومطاردات وحوادث وموتى، وحتى فى خلال هذا الإطار الوضيع يخيب أملى، أصاب بالإحباط، ما أن أتوقع حدوث شئ وأريده حتى لا يحدث، وذلك الممثل الذى أردته أن ينتصر انهزم، وتلك المرأة التى وددت أن تتراجع فى اللحظة الأخيرة لم تتراجع.

كلهن خائنات يا عادل، حتى جدتك، جدتى ليست امرأة يا أحمق.

أبتسم فى الظلام لذكرى نوبة الضحك الهستيرى التى ألمت به حتى لم يستطيع التوازن فجلس على الطوار يضحك. قبل القطيعة كان كل حين وآخر يتذكر فينفجر ضاحكا متسائلا :

ـ كيف حال ابنة الجيران.

ـ لم أعد أراها.

ـ هل عرفت اسمها.

ـ لا.

ـ فينفجر ضاحكا.

هذه الممثلة تشبهها. تنداح الذكرى :

سمعت طرقات خافتة على الباب، بمجرد أن فتحت ألقت نفسها بين ذراعىّ كما لو كان ثمة موعد، أخذت تقبلنى فى

وحشية وتعبث في جسدى فبادلتها المعابثة، كنت أجهل كيف يتم الأمر، فعاونتنى بحنكة حتى استوت الأمور على وجهها الصحيح، جسدها يتفجر حرارة وأعضاؤها تتقلص وتنفرج ووجهها غارق في غيبوبة نشوة مغمضة العينين أما عيناى فمفتوحتان على الآخر ترقبان في دهشة كل ذلك كانه يحدث لسواى، أهذا هو الجنس إذن، هذا ماكان بين أبى وأمى، وجدتى، جدتى نفسها، هى الأخرى مارست نفس الشئ ذات يوم. استعادت شبقها مرات، وأنا مازلت نائيا قصيا حتى أخذت أرقب الجدران، وأنظر إلى الساعة، فأكتشف أننى قضيت فى هذا الوضع زهاء الساعة فخشيت أن تظن برجولتى الظنون، فناشدت نفسى أن تلمّ شتاتها حتى أركز وينتهى الأمر.

بمجرد أن أنتهيت، دون كلمة، أصلحت شأنها وانصرفت كما أتت، دون أن أعرف حتى اسمها.

ليال وراء ليال والأمر يتكرر وأنا أقابل أباها كل يوم بملامحه العجوز الطيبة، فيثقل على ضميرى ما أفعل، ليس ما أفعل على وجه التحديد بل خداع الرجل وهتك عرضه.

- عم بسيونى: أنا على علاقة بابنتك.

انتهى الأمر فى قسم الشرطة، كان عادل بلال قد حضر بالصدفة فأخبروه أننى هناك بعد مشاجرة عنيفة فاستنجد بمصطفى أبو عوف قريب ضابط المباحث بقسم السيدة فأتى

معه ليحلا المشكلة بطريقة جعلتنى اقول لعادل ضاحكا أنت أعظم قوّاد فى القاهرة، صعُب على عم بسيونى أن يقول ما حدث فشكا إلى الضابط أننى أغازل زوجته، انفرد عادل بالرجل قائلا له أننى أُعالج من مرض نفسىٍّ يسبب لى تهيؤات لم تحدث، وانفرد بالضابط ليخبره عن خالى، فتغيرت معاملة الضابط على الفور، استدعانى من الخارج مرحبا سابّا العجوز المخرف، قدم لنا الشاى، وعم بسيونى واقف خارج المكتب، وعادل يواصل الشرح للضابط أنه رجل عجوز ..... ثم يواصل الهمس بما لم أسمع.

ويودعنا الضابط فى حفاوة ملحا أن نكرر الزيارة.

ـ الله يخرب بيتك ! ماذا حدث ؟.

ـ أبدا. قلت لعم بسيونى أنا على علاقة بابنتك.

ـ على علاقة بابنته! أنت قلت له ذلك؟.

ـ لم يهن علىّ أن أخدعه، كان يمكنه تجاهل الأمر، أو منعها، أو أن يطلب منى الزواج منها، رغم أنها لم تكن بكرا.

وقف عادل ينظر إلىّ مذهولا، ثم بدأ فى ضحك جنونى لم يتمالك نفسه معه فجلس على الرصيف وهو يقول:

ـ المرأة زوجته لا أبنته.

تساءلت فى دهشة :

ـ والعجوز التى معهم.

ـ أخته العانس.

هأنذا فى بيت أبى مرة أخرى، طفح الملل والتشتت فغادرت السينما قبل أن يكتمل الفيلم بعد أن أعطيت الحارس جنيها كى يتغاضى عن تعليمات الأمن، مشيت كثيرا فى شوارع المدينة عسى أن تنهد قواى فأنام، نشرة الأخبار أسمعها والريموت كنترول فى يدى. الرئيس يفتتح، الرئيس يقابل، الرئيس يخطب.

لو يذيع التليفزيون الآن قرارا بأنك عينتنى وزيرا للداخلية
أو حتى قائدا لسجن يسجن فيه زوج أمى
لو أننى أستطيع التواصل معك

أو تكون لى القدرة أن آتيك فى حلم منذر بالكوارث إن لم تفعل ذلك، أو أكتشف صدفة مؤامرة لقلب نظام الحكم يتزعمها هو فاكشفها لك فتحكمنى فيه وتوكل إلىّ أمره، أو أن آتيك شبحا مرعبا أحصل بنفسى على مرسوم تعيينى، على تفويض كامل بالتصرف معه، آمر بالقبض عليه، بتمزيق أوراقه وبطاقته، بضربه بالنعال والسياط وتعليقه من يديه وقدميه، يستمر الضرب حتى ينهار تماما، حتى يصرخ: أرجوك أتوسل إليك، فألعن أباه وأمه مليون مرة فلا يجرؤ على الرد، أنادى ذلك الجلف صارخا فيه: «شف شغلك». فيصرخ زوج أمى: إلا هذا إلاّ هذا، أتوسل إليك ويقاوم الجلف الذى يصرعه ويبطحه كى يدس قائمة الكرسى المكسورة فى دبره فيصرخ معانيا ألما لا يطاق، وتمتعنى قطرات الدم الدافئة المنبثقة منه، وبعد أن ينهار تماما. بعد أيام وأيام آمره بأن يكتب اعترافاته، كلما كتب أمرت بإعادة تعذيبه وأصرخ فيه: أنت حيوان وكذاب وابن كلب ولن يتوقف العذاب حتى تعترف بالحقيقة كاملة، فيتساءل فى هلع: عن أى شئ،

سأقول، والله العظيم سأقول فأرد عليه : الحقيقة كاملة، كل شئ، بعد أن يعترف آمر بإحضار أمى، أطلعها على اعترافاته، أواجههما، كيف عرفتيه. متى رأيتيه أول مرة. ماهى أول كلمة قلتها له وما أول كلمة قالها. متى أسن الماء وتعفن، متى تحولت البراءة الى فجر، والطهر الى عهر، أم لم تكن هناك على الاطلاق براءة ولا طهر، على الاطلاق، متى التقت عيناكما أول مرة، ومتى انتشى ما بين فخذيكما استجابة لنظرة عين أو لمسة يد أو حركة تواطأتما بعهرعلى ادعاء عفويتها، أى لحظة بعد ذلك انكشف فيها الغطاء وبرح الخفاء، متى اقتحم أنوثتك أول مرة، كيف ضاجعك، هل تذكرت حينها أبى، أم قارنت نشوة بنشوة، ومن فاز، كم مرة خدعت جدتى. كم مرة تركتينى اصرخ، أبكى وأتشبث بك لكنك تتركينى لتذهبى اليه، كم مرة أنا الغبى فرحت بقطعة حلوى أحضرتيها لى معك بعد لقائك به، ربما بعد مضاجعة. متى نسيت، متى. متى انشغل قلبك بغير أبى، بعد موته بكم، أم بدأ الأمر وهو حى، لاشئ مستبعد، لاشئ مستحيل الا أن أجد لهذه الأسئلة اجابة.

أتقلب فى سريرى، أدير للحائط وجهى، احتضن وسادة واضع أخرى على رأسى، أنقلب على ظهرى ثم على جانبى الآخر ثم على بطنى كما لو كنت اؤدى طقوسا سحرية أتوسل إلى إله النوم أن يمن علىّ برحمته.

دهشت حين لم أدهش فقد كنت أحلق فى السحاب طائرا، دون صعوبة، كانت سناء تحلق وأيضا عادل وكوثر

ومصطفى أبو عوف يقف على الأرض مندهشا متسائلا، كيف استطعتم فأنظر إليه بازدراء ولا أرد، أسمع شقشقة كوثر ولا أراها، فجأة اختفوا جميعا فحططت على بيت أظنه بيت جدتى فسمعت صوت خالى، لكننى كنت واثقا - كيف لم أدر - أنه أبى يحاول أن يقلد خالى.

كانت الدنيا معتمة فتسللت حتى أمسكه:

- أنت أبى.

بانت عليه ملامح الرعب وهو يتراجع:

- أصمت يا أحمق.

- لن تخدعنى بعد الآن.

- قلت لك أصمت.

- لكن كيف تكون أبى وزوج أمى.

- ألم تسمع عن تناسخ الأرواح

- نظرت إليه فى ذهول وصحت:

- تناسخ الأرواح فكرة وثنية وأنت شهيد يا أبى.

- بل هى فكرة صوفية يا أهبل.

لكن لماذا تركت له مكانك لتحل بعد ذلك فيه، مادامت الروح واحدة فلم لم تظل أنت، لماذا أنت زوجها لكنك لست أبى.

كدت أحرك شفتى بذلك، لكن مامنعنى، ما أوقفنى، أنه نظر إلىّ ساخرا لأننى أظنه يحتاج لأن أتكلم وأرفع صوتى كى

يسمع، لأنني لم أدرك أنه يسمع ما يجول بداخلي. قال ساخرا لكن بمرارة :

ـ يا أحمق أنا هو، أنا فيه.

انفجرت الحقيقة أمام عيني فجأة وأدركت سر رعبه مني، أطبقت على رقبته وانا أصرخ :

ـ الآن أفهم الحقيقة، أنت زوج أمي، قتلت أبي ثم صنعتم من جلد وجهه قناعا كي لا يقبض عليك البوليس.

تخاذل في يدي، تهاوى، ورحت أشد شعر رأسه تمنتهى القسوة حتى أنزع القناع عن وجهه، تفتت القناع فجأة في يدي، اختفى، ترك خلفه هيكلا عظميا فملت الى صخرة في يأس لا نهائي وأنا أقول لنفسي كيف أعرف هيكلك العظمي من هيكله، ونظرت الى يدى فإذا بهما تقطران دما فشملني الرعب والذهول، وأنا أتساءل كيف انتقلت من بيت جدتي الى هنا وأين أنا، ومن أين الدم، فرحت أشهق وأزفر

فصحوت مستثارا مستفزا ومن الغضب في غاية، أندهش لغضبي لكنه لا يترك للدهشة مجالا، يرتفع وجيب قلبي، أسمع بأذنيّ نبضاته، أتقلّب على جنبيّ، أنام على ظهري ثم أنقلب على بطني، لكن خفقات قلبي تستمر في ضجيج مستمر هائل، كقرع طبول وحشية تنذر بالغموض والرعب، لو خف الصوت قليلا لاستطعت أن أنام،أضع وسادة على رأسي فيزداد قرع الصوت، أنهض ثم أرقد من جديد رأسي مكان قدمي، أُحتضن وسادة، لكن القرع يتواصل، أهرب أخيرا فأغادر الفراش واشعل الأضواء،

أعدُّ لنفسى كوب ماء مثلج، أرشفه ثم أجرش الثلج داخل فمى، أدور فى غرف المنزل، أتطلع من الشرفة إلى السيارات المارقة، إلى سائر فى ظلام الليل وحده، أتعلم مابى، أتطلع إلى النجوم، أمسك كتابا كيفما اتفق، يبدأ صوت قلبى فى الخفوت، بعد ساعة أو ساعتين خارت قوى فنمت فى مكانى، سقطت فى غياهب النوم كما لو كان بئرا للرمال المتحركة تبتلعنى. غيرأنى بمجرد نومى واصلت الحلم مرة أخرى، فأخذت **أطــارد** زوج أمى

ويهرب منى حتى أمسكت به جدتى فصرخت فيها اقتلى خالى ياجدة، فهمست بمرارة يامسكين إنه عمك وليس خالك قلت يا جدتى ليس لى عم فنظرت إلى بأسى وإشفاق متمتمة يا مسكين مازلت صغيرا لا تفهم فصرخت صرخة مروعة أيقظتنى.

ربــاه ما أشد ما تؤلمنى رأسى، عندما كنت أقص على جدتى حلما كانت تتساءل بانزعاج ورعب، هل رأيت الدم فإذا أجبتها بالإيجاب استراحت فانبثاق الدم فى الحلم يعنى فساده، أما احتباسه فخطير خطير، كالبكاء بلادمع. أعد لنفسى الإفطار والشاى رغم أن الوقت مبكر جدا، النوم غول أخشاه فليس كقسوة الأحلام قسوة، وأقسى ما فيها تلك اللحظات بين اليقظة والنوم، لحظة التساؤل المروع المروع، هل ما حدث قد حدث حقاأم ليس إلا حلما، ساعتها ينشب الصراع الأسطورى بين الحلم ونفيه، إذ يبدو الحلم كجنين لم يكتمل، لم يتشكل له عضو ولم يبد ملمح، كصلصال فى يدى مثال، لكن هذه النطفة الصلصالية سرعان ما تدرك التهديد بالفناء فتصارع صراعا مذهلا من أجل البقاء، وتنمو الأعضاء وتتشكل الملامح،

لذلك بعد أن تكتمل يقظتى، ويثبت أن ماحدث لم يحدث قط، أعجز عن تحديد ما حدث فى الحلم فعلا وماأضيف إليه فى لحظات الصراع تلك، حتى أن آمال اتهمتنى ذات يوم بالكذب، أننى أحول الحلم إلى قصة، فأشذب شذوذه وأنسق فوضاه وأمنطق شططه كى يوازى الواقع، كى يكون واقعا، لكننى واجهت الاتهام بتلك الراحة المأساوية لحظة التأكد من أن ما حدث كان حلما، أنه لم يحدث، كراحة من يموت ابنه فى حادث سيارة، لكنه يكتشف أن الجثة لم تنسحق تماما، أن بعضا من عظامها ولحمها ما يزال يوجد كى يدفن.

قالت جدتى :

- الكذب فى الحلم حرام كالكذب فى الحقيقة.

ونظرت إليها بذهول ورعب هاتفا فى لوعة ابن الخامسة :

- وكيف أتجنب الكذب فى الحلم ياأمى.

فأشاحت عنى مغاضبة لائمة.

ما أقسى الأيام التى حاولت فيها ألا أكذب داخل الحلم، أن أستعيد منه كل لحظة وكل حرف كى أستوثق من أننى لم أكذب، لن أدخل النار، لكن كيف يدخلنى الله النار على فعل بلا إرادة. لكن جدتى غضبت منى، إذن فالله أيضا سيغضب، وفسرت لنفسى الأمر أننى إذا حرصت على الصدق فى يقظتى فسوف ينجينى الله من الكذب فى منامى.

لم أدرك إلا بعد أعوام أن جدتى كانت تقصد الكذب فى رواية الحلم لا الكذب داخل الحلم، وعندما فهمت ذلك خجلت من نفسى، من غبائى وعدم

فهمي، ولم يخل الأمر من لوم لجدتى، كان يجب أن تفْهمنى دون أن اتكلم وأن تفهمنى دون ان أطلب.

فى الخامسة أيضا كنت، وثمة زحام ونساء يتشحن بالسواد، ورجل مخيف يسألنى :

ـ هل تريد البقاء مع جدتك أم الذهاب مع أمك.

وقلت له :

ـ أريد أن تبقى أمى معنا.

وضحك الرجل وبكت أمى وقرصتنى جدتى فتذكرت تحذيرها خائفا فقلت :

ـ أريد جدتى.

كنت أريدك أنت لكننى كنت أخاف جدتى أكثر منك.

هل تعرفين كم ألف مليون حلم يقظة احترقت فى لهيبها كى أصل إليك، من قال أن الطفولة سعيدة وبريئة، فى أحلام يقظتى لم توجد جريمة لم أرتكبها، ما منعنى فى الواقع عنها قلة حيلتى، ضعفى، هوانى عليك.

أبـــدا بالتخطيط للهرب لك، تحاول جدتى أن تمنعنى فأقتلها، أتسلل من البيت لكن أهل القرية يحسون بى فأقبض يدى وأفتحها متمتما بكلمات السحر فتشتعل النار فيهم وفى بيوتهم وأمضى نحوك فيطاردنى العساكر فأمسك بيدّى سلاحا سريا أواجههم به فأفنيهم جميعا، لكنهم يأتون إلىّ بمدد أكبر فأفاجئهم وأطير فوق السحاب ضاحكا فى سريرتى

من دهشتهم وذهولهم لأنهم لم يظنوا أن لدىّ هذه القدرة، فيأخذون فى البكاء والعويل لأنهم أدركوا اننى ولىٌّ من أولياء الله الصالحين، وأن لعنتى ستحل عليهم، فيصرخون طالبين منى أن أنزل إليهم كى أغفر لهم فأزعق فيهم بشرط واحد، فيقولون اطلب تجد وأمْرٌ نجيب، فأقول لهم أريد أمى فيأتون بك فتذهلك المعجزة، وتأخذيننى. كم ألف مليون مرة حدث هذا وحدث غيره، تختلف التفاصيل وتتباين الكوارث وتتكاثر الضحايا لكننى فى النهاية أجد نفسى فى أحضانك، كنت أتخيل أحيانا أن جدتى هى أمنا الغولة، وأنها اختطفتنى منك بعد أن حبستك فى قبو، فدمرت العالم مرات لاحصر لها كى أنقذك من محبسك، لكننى بعد أن كبرت قليلا أدركت أنك أنت الغولة وأننى أنا المحبوس، أنك أنت التى تركتينى، فشملنى الرعب أن تتركنى جدتى هى الآخرى.

خـرجـت إلى الشرفة، لأرقب الرائحين الغادين فى همة، لأقتل الوقت قبل أن يقتلنى، كانت جارتى تنشر الملابس المغسولة فلم تشعر بى، داعبتنى رغبة شيطانية فى العبث :

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور.

قبل أن تدرك تماما من القائل ـ أو لعلها أدركت ـ أجابت.

وعندما نظرت نحوى، واكتشفت أن القائل أنا، فغرت فاها فى دهشة،

وبدأ الاحمرار يعلو وجهها والغضب يتفجر فسارعتُ بالدخول قبل أن تبدأ سبابها وتتكرر فضيحة.

لماذا فعلت ذلك، أسخرية بها، أم فتحا لجرح ونكأً لألم، أنا الذى لا اسخر من شئ أبدا، فكل الأشياء دافعة للبكاء، حتى الضحك، لماذا فعلت ذلك، لكن، ولماذا أفعل أى شئ آخر، أو لم أفعل أى شئ آخر، فليتساءل من يعرف الجواب.

فى الطريق إلى القسم قابلنى إبراهيم، حاولت تجنب لقائه لكنه نادانى ليخبرنى أنه يوجد خطاب لى مع عم يوسف.

ـ صباح الخير يا راوية.

ـ صباح الفل.

مررت بسرعة على المرضى وراجعت التذاكر والملاحظات، انقبض قلبى حين لم أجد سناء، لا أظنها قد ماتت، ولكن أغلب الظن أنهم ذهبوا بها إلى الامتحان، كانت زينب منكمشة فى سريرها خائفة مذعورة، فلم أكلمها.

بعد انتهاء المرور حكواْ لى عمّا فعلته سناء عند أصطحابها عنُوة إلى لجنة الامتحان، كان علىّ تجنب الذهاب لكننى استدعيت. وبمجرد دخولى انفجرت كبركان، كأنّ الألم يكون أشد قسوة عندما يراه من نحب. ذبيحة مجلجلة داوية جاءت الصرخة:

ـ دكتور محمد .. آآآآآآآآآاه ه.

آه من اللهب، من حمم البراكين المنصهرة، من فولاذ الدبابات السائل تحت النابالم، آه تطلب الموت لا تدفعه، تتمناه لاتخشاه، آه خمسة وعشرون عاما ن الضنى، آه الأمل الذى خاب، الألم الذى يفرى، آه الفجيعة آه الصدمة. آه التى احتملت كبرياءً كى لا تنطلق الآه. أنا الآخر آه، بل لعلى بها منك أولى.

اندفعت نحوها. اندفع نحوها أيضا المدرسون المساعدون لتوبيخها، واصلت الصياح فصفعها أحدهم فانكمشت فى بؤس هائل متطلعة إلىّ. حاول أن يصفعها مرة أخرى فأمسكتُ بيده بعنف:

ـ لو ضربتها سأضربك.

تزايد اللغط وجاء رئيس القسم مهرولا فاندفعت نحوه :

ـ أرجوك، إنها لا تحتمل أن تكون حالة للإمتحان.

وصاح المدرس المساعد فى غضب :

ـ إما أن تكون كالباقين أو تخرج فورا.

وردت هى فى صوت مرتعش:

ـ سأخرج حسب طلبى وعلى مسئوليتى.

قال المدرس المساعد فى سخرية القادر.

ـ ستكتبين الإقرار، وحتى يحضر من أقاربك أحد لاستلامك ستُعاملين كالآخرين، لست أحسن منهم وستأتين للامتحان كل يوم حتى خروجك.

اندفعت نحو رئيس القسم قائلا:

ـ سأستلمها أنا.

تبدى لى استعار الغضب فى عينيه، لكنه سرعان ما كبحه :

ـ يجب ألا تضعف إزاء هذا التدلل الكريه.

ـ إنها تريد الخروج على مسئوليتها وسأستلمها أنا، لا توجد مشكلة.

ـ حتى لو استلمتها، من سيحملها إلى بلدها؟.

ـ أنا.

نظر إلىّ فى دهشة ممتزجة بالحنق، لكنه ابتسم متمتما :

ـ ابن أبيك.

أطرق قليلا، كأنما يتدبر الأمر فى نفسه ويقيس احتمالات الصدام، لكنه سرعان ما حسم أمره فأردف :

ـ خذها.

ثم قفل راجعا.

اقتربت منها، ربت عليها، انتفضت فى الفراش محاولة القيام دون مساعدة لكنها عجزت، قبضت على ساعدى بيديها الضعيفتين المرتجفتين نصف المشلولتين، عضلات أصابعها الصغيرة ترتجف ارتجافات لا إرادية على ذراعى.

ـ لا تتركنى دكتور محمد، أتوسل إليك.

ـ لا تخافى. لن أتركك، سآخذك معى.

أحافظ على هدوئى الظاهرى، على ملامحى الشمعية، لكننى لا أكاد أستطيع منع نفسى من أن أميل إليها، أضمها إلى صدرى، أغسل آلآمها بطوفان من دمعى أحبسه خلف مآقى، أقبلها أيضا، أعتذر لها عما فعله

العالم فيها كما لو كنت أنا المسئول عنه، أعزيها عن عذابها الذى لم يكن لها فيه يد. أمزج عذابها بعذابى، فيعزى كل منا الآخر، يابنيتى المسكينة المعذبة، لو أملك، لو أقدر، لدفعت باقى عمرى مقابل بسمة عى شفتيك اللتين لن تعرفا البسمة قط، أبدا، أى مستقبل وأى ألم ينتظراك.

أنهينا الإجراءات سريعا، بكت زينب طويلا وهى تودعها وأصرت على الخروج حسب الطلب هى الأخرى، ووقعت على ذلك فعلا فقلت متضاحكا:

ـ لا أستطيع الذهاب إلى طنطا والمنيا فى نفس الوقت.

فردت زينب أنها تتوقع زيارة يوم الخميس أو الجمعة على أقصى حد وانها ستنتظر حتى ذلك.

تطوّع أحد الزملاء بأن يناوب مكانى حتى صباح الغد، شكرا على نبلك البادى لكننى للحزن أعرف ما خلفه وأنت تعرف أننى أعرف وراوية أيضا تعرف بل وابتسمت عندما عرضت عرضك أيها الزميل الشبق إليها، فاهنأ بها إنها اليوم مناوبة معك، ولولا ذلك ما عرضت عرضك.

دفع العامل الكرسىّ المتحرك وخرج المرضى والممرضات للوداع، وسبقت كى أجهز سيارتى.

تمزق قلبى أثناء ذلك المجهود المضنى الذى بذلناه حتى تركب السيارة، لو أنها تركتنا نحملها لهان الأمر، لكنها كانت محمومة بالغضب لا تكف عن البكاء فقاومتنا محاولة أن تثبت لنا قدرتها على الركوب وحدها، كان موقفا فاجعا عندما خذلت قواها انفعالها وتركتنا فى النهاية نحملها، وضعنا

حقيبتها فى السيارة ومقعدها المتحرك أعلاها. وفجأة بدا الرعب على المودعين عندما هتف العامل :

ـ رئيس القسم يركب سيارته.

فهرعوا جميعا هاربين.

أومأ رئيس القسم لى وهو يمر بسيارته، ثم سرعان ماتوقف ليعود بها إلى الوراء، نزل وهو يحملق ناحيتى فحدست أنه مندهش لاصطحابى سناء فدهشت بدورى لدهشته، ودهشت أكثر لتعبيرة عنها هو البارد اللامبالى المتعالى البعيد، نزلت من سيارتى مراعاة للذوق، تسمرت عيناه على السيارة حتى انهما لم تنحرفا نحوى عندما مددت يدى لأصافحه، لم يرها فسحبتها فى خجل وغضب وأنا أفكر فى الخطوة التالية، كيف أرد إهانته، لكن شيئا فيه عصى على فهمى، فكبح جماح الغضب والمهانة، لم يبد بادرة، بدا وكأنه يتحرك فى حلم، كأنه يطير، كأنه يطفو ولا يخطو، ثم هتف دون أن ينظر :

ـ ١٦٧ ملاكى غربية.. نصر ١١٠٠ .. هذه سيارة أبيك.

فوجلت، لكننى أومات بالإيجاب.

وأنا من الدهشة فى غاية أحسست أنه يترنح، أنه يقاوم تقلصات فى عضلات وجهه وصدره وبطنه، بدا أنه سيقول شيئا ثم تراجع، ثم بدا أنه سيتقيأ لكنه تحكم فى نفسه، وضع يدا على جبهته كأنما ليحفظها من الانفصال عنه، امتلأت عيناه بالدموع فجأة ثم هرع إلى سيارته.

عندما عدت الى السيارة كانت سناء مُستفَزة، انطلق صوتها غاضبا

ـ ماذا كان هذا الرجل يريد منك؟.

ـ لاشيء.

ـ لعله غاضب من اصطحابك لي؟.

ـ . . . .

ـ إنني آسفة.

ـ . . . .

ـ سوف أسبب لك المشاكل هكذا.

اسكتي

اسكتْي أرجوك

لو نطقت، لو فتحت فمي وحركت شفتي لأرد عليك لأجهشت في البكاء فاسكتي.

أحاول اعتصار ذهني لأحدثها، لاختلاق موضوع يجعلها تتوقف عن البكاء، لن احتمل الرحلة هكذا، بي مايكفيني، ولست مثلك، لا أتجنب البكاء كبرياء ومداراة لما بنفسي، وإنما أدرك أن ذلك الثقب الصغيرفي كل عين، الثقب الذي تنفذ منه الدموع ليس إلا فتحة لخزان هائل، لذلك أحرص على إغلاقه، لو أنه انفتح لن استطيع إغلاقة أبدا أبدا ياسناء فارحميني أرجوك.

أشرت إلى الشاهد بين المدرجين قائلا لها :

ـ اقرئي الفاتحة.

ـ لماذا؟.

لكنني كنت قد بدأت فتبعتني.

ـ على هذا الحجر الرخامى كتبت أسماء شهداء الكلية.

ـ.....

ـ بين الأسماء اسم أبى.

ـ.......

ـ لا أعرف له سوي هذا الشاهد قبرا.

ـ.......

ـ وهذه نافذة شيم الشافعى.

ـ من هى شيم الشافعى؟.

ـ كانت زميلة لأبى، عندما راجعت الكشوف فى الكلية اكتشفت ذلك وكان هذا الشارع جزءاً من القصر العينى القديم يشكل فناءاً أو حديقة امام المشرحة لكن تقرر أن يشقّ فيه شارع يصل شارع المنيل بشارع القصر العيني.

ـ ولماذا سموه شيم الشافعى؟.

ـ كانت شيم إحدى طالبات الكلية المتفوقات فى الدراسة بالإضافة إلى نشاطها الاجتماعى الواسع وحصولها على بطولة الجمهورية فى عدة مسابقات رياضية، وكان أبواها استاذين فى الجامعة، وذات يوم كانا عائدين من الإسكندرية وتعطلت سيارتهما قبيل القاهرة فاتصلا بها تليفونيا فذهبت إليهما لتجد أن سيارتهما قد اصلحت فعلا فعادوا معا، وفى مدخل القاهرة، بالقرب من الأهرام، كانت هناك سيارة جيش يتعلم القيادة عليها ضابط قرر مغازلة شيم، اختلت عجلة القيادة فى يده فسحقها سحقا

شهقت سناء فى انفعال.

ـ أمام أبويها.

ـ أمام أبويها.

ـ لكن كيف عرفت كل هذه التفاصيل.

ـ حكاية طويلة ياسناء.

صمت طويلا، لو تحدثتُ سأغرق ولو سكت ستبكى.

ـ فل يابيه.

قالتها الفتاة الرثة الثياب وهى تدفع يدها من النافذة إلى داخل العربة.

ـ لانريد.

توسلت وهى تلقى بعقد من الفل على حجر سناء:

ـ ربنا يخلى لك الهانم يابيه.

ارتجفت يد سناء وهى تخرج نقودا من حقيبتها فتداركت واعطيت الفتاة نقودها

ـ لم أجد أبدا من يحكى لى عن أبى، جدتى مازالت مصرة على أنه غائب وسيعود ذات يوم، لايمكن أن تتخيلى قدر انفعالها عندما يحدثها عنه أحد كشهيد، لذلك حاذر اقاربى الحديث فى الموضوع كله، وفى بيت جدتى لا يُذكر اسم أمى قط، فإذا لم يكن منه مناص استعاضت جدتى عنه بالمعلونة، وأمى لا تحدثنى عن أبى أبدا، عندما جئت إلى القاهرة انفك إسار جدتى وأمى وأقاربى، أخذت أقرأ كل ما كتب عن تلك الفترة، كل ماكتب، وجدت تناقضا فاجعا، كنت كعطشان يشرب ماء البحر كلما شرب

ازداد عطشا. وواتتنى فى النهاية فكرة أن أرجع إلى الصحف فى تلك الفترة، قرأتها كلها.

ـ وفيها قرأت حادثة شيم.

ـ وأكملتها من عم يوسف وزملائه.

لم أستطع كبح جماح رغبتى فى المواصلة، فى الاعتراف :

ـ خامرنى أمل مجنون بأننى سأقرا شيئا عن أبى فى إحدى الصحف، شيء يكشف لى أى شيء عنه، لم أستطع إلا تخيل انفعالاته، تقمص شخصيته، كنت ساذجا جدا عندما بلغ بى الحزن مداه لأنى حين قرأت صحف عشر سنوات وجدت أن اسم أبى لم يرد فيها قط. مجرد اسمه.

تنهدت سناء فى أسى :

ـ ماأشد قسوة الدنيا.

وخامرنى شعور كئيب بأننى دافعت أحزانها بأحزانى فانتصرت.

ـ دكتور محمد، هل تقبل أن تراسلنى.

فاجأنى طلبها لكننى أجبت على الفور :

ـ طبعا.

ـ أعرف أن فى إجابتك نوع من العطف، لكن عطفك أقل على قسوة من عطف أهلى.

ـ لا تقولى ذلك ياسناء.

ـ اعتبرنى مثل كوثر.

ـ أنت تعرفين احترامى لك وشعورى نحوك، وإلا ماعريت نفسى أمامك كما فعلت، المراسلة بيننا قد تكون أكثر أهمية لى.

- أنت نبيل جدا، وما كان أغناك عن حكاية كل ما حكيته لي، لولا أنك تحارب باستمرار حربا يائسة كي تثبت لي أن هناك في الدنيا ما هو اشد إيلاما من المرض. أن تخرجني من ذاتي.

أخرسني الألم فلم أرد، وواصلت هي:

- ليست قسوة المرض ما تؤلمني، لكن ذلك الإحساس البغيض بأن كل من حولي يتمنون لي الموت، لكن كيف ألومهم وأنانفسي لا أفعل إلا ذلك

قلت مدافعا:

- أنت تبالغين كثيرا.

لكنني كنت أعرف أنني أكذب وأنها تعرف أنني أعرف أنها تعرف أنني أكذب.

- دعك من ذلك، سوف أسألك سؤالا تهرّب الجميع من الإجابة عليه، في مثل حالتي: متى يدركني الله برحمته.

- ماذا؟.

قالت في ألم لايوصف :

- لاتصطنع عدم الفهم، في مثل حالتي، متى سأموت،ذلك لايخيفني بل يعزيني. لاتتحدث عن اشياء عامة، ولا تقل لي أنك يمكن أن تموت قبلي، كل هذا لا يعزيني فضلا عن أنه قيل لي.

كنا على مشارف قويسنا وكنت أحاول الهروب من السؤال فتضاحكت قائلا - دون أن أدرك خطئي- :

- مارأيك في دعوة على الغداء في البرج؟.

ردت ساخرة :

ـ وهل ستحملنى أم ستطلب من العمال أن يحملونى.

تضاءلت وانكمشت.

وثمة سائق يعلو نفيره وهو يعبرنى لاعنا وباصقا نحوى.

لماذا أنت أيضا، لم أسئ إليك قط، لم أقابلك ولن أقابلك أبدا.

عادل بلال يشيح بوجهه مخفيا شبح ابتسامة وصديقه الحيوان مصطفى ابو عوف يسألنى فى فضول ساخر :

ـ سمعت أنهم يضعون فى دبر كل معتقل شيئا كى يكسروا نفسه، كى يفقد الإحساس بالكرامة، وتنهار داخلة دوافع المقاومة، أخبرنى بذلك قريبى ضابط قسم السيدة.

ثم واصل فى قسوة :

ـ هل وضعوا فى دبرك شيئا.

داريت ألمى بابتسامة وأنا أسأله لتغيير مجرى الحديث :

ـ هل هو قريبك فعلا؟.

رد بانفعال بالغ :

ـ جدا.

ـ ماهى درجة قرابتك له.

ـ ندخن الحشيش سويا.

لماذا بصق الرجل علىّ.

سناء تبدى استياءها لسوء خلق الناس، لكن من يمنع النزيف.

- هل حكيت لك مافعله زميلنا مصطفى أبو عوف فى ابراهيم أبو شنب؟.

- لا، أعرف الدكتور إبراهيم لكننى لا أعرف الدكتور مصطفى.

- أنت تعرفين شخصية إبراهيم، ساقل وحقير بكل معنى الكلمة، لكنه عندما سكن فى غرفة فى بين السرايات اكتشف أن كونه طالب طلب لا يجلب له الاحترام الكافى، فتصنع أنه شيخ أيضا فربى لحيته وقصر ثوبه وأخذ يؤم الجيران فى الصلاة، علم مصطفى بهذا الوضع فذهب إليه ذات مرة كأنما ليزوره، وغافله ليضع ضفدعه فى جمجمة الهيكل العظمى الذى يحتفظ به كل طالب طب، ما حدث بعد ذلك كان فضيحة كسرت هيبة إبراهيم بين الجيران لكن ماحدث بعده كان أشد، إذ...

قاطعتنى بصبر نافد:

- متى أموت يادكتور محمد.

صمتُّ طويلا، ثم أجبتها صادقا وكاذبا فى نفس الوقت:

- لا أحد فى الدنيا يعرف.

- أعرف ذلك، لكن لا تخدعنى، هناك مجال للخبرة الطبية وهناك حالات مشابهة رأيتموها.

قلت مواصلا التهرب:

- مازلت طبيب امتياز فمن أين لى الخبرة.

غمغمت فى يأس :

- أنت كالآخرين لا تريد الإجابة، أتظن أنك بهذا ترحمنى.

خيم صمت طويل ذو دوى يصم القلب.

- سناء: لم أحك لك عن عادل بلال قط.

- من هو عادل بلال.

- اقرب الأصدقاء إلى قلبى.

- غريب أنك لم تحدثنى عنه.

- إنه يخاصمنى الآن، لكن تلك حكاية أخرى، ما أريد أن أحكية لك، ماقد يكون فيه إجابة لسؤالك، هو وجهة نظر غريبة له فى الحياة.

قالت بسخرية يائسة:

- هل ستتكفل حكاية صديقك بالإجابة عن سؤالى؟.

- على وجة ما ياسناء، برغم أننى لا أوافقه عليها.

- على أى حال يبقى من الطريق نصف ساعة، والكلام مهما كان افضل من الصمت.

أحبطنى قولها، لكنى وصلت

- هى مجموعة أفكار قديمة عند عادل بلال لكنها تبلورت بصورة نهائية سيطرت عليه تماما حتى أنه لا يكاد يفكر فى شىء آخر، فيتساءل مستمتعا باتساق أفكاره: هل تظن أن مسار التاريخ كان يمكن أن يتغير لو تغيرت أحداثه، لو تغير الأشخاص وهل كان يمكن أن يتغير الأشخاص بتغير الأحداث، هل كان يمكن لآدم مثلا أن لا يأكل الثمرة المحرمة، هل

كان يمكن ألا يهبط إلى الإرض، أن لا يحدث كل الذى حدث، لو أن هتلر انزلق فى شبابه على قشرةموز ألقاها طفل أو صعلوك فى الطريق فمات، أكان يترتب على هذا أن من ماتوا لم يكونوا ليموتون؟.

قاطعتنى بملل :

ـ الآن عرفت متى أموت.

ـ لاتتعجلى، فعادل لا يستعمل اسماء ادم وهتلر إلا كمثل يمكنك ان تضعى مكانه اسم صدام أو نابليون أو كسرى أو قيصر أو اسمك انت نفسك. إنه يتحدث عن القدر إذ لو قلنا أن شخصا ما هو المسئول لكانت مسئولة أيضا ملايين الصدف التى تضافرت كى يصل إلى منصبه، تكون مسئولة مئات الحوادث التى كان يمكن لها ان تحدث له فيموت، زملاؤه الذين كان يمكن أن يخونوه فلم يخونوا، اعداؤه الذين لم يغتالوه، آلاف الأمراض التى كانت يمكن أن تقضى عليه، ثعبان كان يمكن أن يلدغة فلم يلدغ ولاتقتصر الصدف على هذا، إن لحظة معينة قد شهدت مغازلة بين أبوية ترتب عليها وجوده، ملايين الصدف أيضا تحكمت فى تلك اللحظة، لو أن صديقا طرق الباب فجأة، أو أن نملة، مجرد نملة قرصت طفلا آخر لهما فبكى فنهضت الأم اليه: أكان يترتب على ذلك ألا يجيء هذا الشخص الـ.. ما وألا يحدث ما يحدث، ولو واصلنا الإجابة بنعم، فإن ملايين الصدف أيضا تتحكم فى كل أسلافه حتى آدم، كان يمكن لأى واحد منهم أن يفترسه وحش أو يموت فى وباء أو يقتل فى معركة فتنقطع السلسلة التى أتت به إلى الوجود، أكان يترتب على ذلك ألا يحدث ما حدث، هل يتحكم فى الوجود هذا العبث.

قالت سناء وقد بدأ الاهتمام يستولى عليها :

ـ طريقة تفكير غريبة فعلا.

ـ يواصل عادل بعد ذلك شرح فكرته ليصل فى النهاية إلى نفس ما يقوله العجائز وشيخ المسجد فى قريتنا: أن كل شىء مكتوب. أن ميلادك مكتوب ورزقك مقدر ومرضك محتم وموعد موتك لايعلمه إلا الله، وكم طالت أعمار ظن انقصافها وانقصفت أعمار ماظن أحد أن تنتهى. بنفس أفكار عادل يمكن لك مثلا أن تشفى فجأة.

واصلت ضاحكا:

ـ ويمكن أن أموت أنا لتتندرى بعد ذلك على سؤالك لى عن موعد موتك.

غمغمت فى حيرة حقيقة:

ـ له حق، إما أن يكون كل شىء عبثا أو أن يكون بقدر.

ـ معنى هذا أن هذه المرأة التى تقذف صفيحة الماء أمام بيتها تتصرف بقدر قد يترتب عليه حادثة مثلا تودى بحياة العشرات، أو أن تنمو فى هذا المكان بهذا الماء شجرة قد يخترعون منها دواء لمرضك، ومعناه أيضا ان هذه الذبابة التى تطن الآن حول وجهى قدر له معنى، وقد تنقل إلىّ مرضا يميتنى.

ـ هل تعرف أننى أحسدك على أصحابك، هذه موضوعات ثرية جدا للحوار من المستحيل أن تتيسر لى هنا، لكنك وعدتنى أنك ستراسلنى. لكن كيف يفسر صديقك هذا محاسبتنا يوم القيامة على أعمال قدرت لنا سلفا.

ـ لم يغفل تلك النقطة فهى كفيلة بهدم نظريته كلها، إذ يرى أن الإنسان رغم ذلك كله مخير لامسير.

قالت فى شغف أرضانى :

ـ كيف.

ـ يرى أن الدنيا امتحان، وفى الامتحان لا يتعين أن يحدد الطالب الأسئلة سلفا أو أن يختارها، كما أن خطأه مثلا فى حل قانون من قوانين الطبيعة لن يترتب عليه تغيير القانون نفسه وإنما سيحسب خطأ عليه.

تساءلت فى اهتمام :

ـ لا افهم هذه النقطة.

ـ لو أنك سئلت مثلا عن المسافة بين الأرض والشمس، أو دعنا من تلك، المسافة من القاهرة إلى طنطا، لو أنك قلت أنها خمسين كيلو مترا بدلا من تسعين، لن تتقلص المسافة إلى خمسين لكنك ستفقدين درجة السؤال.

ـ يعنى هذا أن تصرفات أى إنسان لا تؤثر فى أى شىء.

ـ هكذا يقول عادل ويستشهد على ذلك بعشرات الآيات والأحاديث.

ـ ما أكثر الأسئلة التى أريد أن أسألها لكننا وصلنا، حمدا لله على السلامة.

ـ عليك أن تقودينى إلى طريق البيت.

ـ بل ستذهب بى إلى السيد البدوى ومن هناك سأتصرف.

أجبت فى استنكار :

ـ هل هذا معقول، سأوصلك إلى البيت طبعا.

أجابت فى حسم :

ـ بل إلى السيد البدوى.

تساءلت ضاحكا كى أحفزها على التراجع :

ـ هل تخشين دعوتى على الغداء.

ـ لا.

ـ أم لعلك تخشين أن أتقدم إلى أهلك لخطبتك.

ـ ....

ـ لو سألنى رئيس القسم صباح اليوم عن الصفة التى سأستلمك بها لقلت له أنك خطيبتى.

ساد صمت مزعج، انفطر قلبى حزنا عليها وأنا أتخيل أننى لا أعيدها إلى بيتها بل أدفنها حية، أنها ستنتهى من وجودى كأن لم تكن، وليس ذلك ما يؤلم بل أن أنتهى أنا من وجودها وإشفاقى عليها من أجل ذلك.

ـ لم أكن سأقول ذلك لمجرد أن أنقذك منهم بل لأننى أعنيه وأريده.

انفجرت مشاعرى بتهور وأنا أهتف بها.

ـ سناء أنا أحبك هل تقبليننى زوجا.

ـ ....

خيم صمت مروع.

خرج صوتها أخيرا خشنا كصوت رجل.

ـ انحرف يسارا، السيد البدوى فى آخر هذا الشارع.

أنظر نحوها بعد أن أزعجنى صمتها.

لم أتخيل أبدا أن دموعا يمكن أن تنهمر بهذه الغزارة :

- لا تسيئى فهمى ياسناء، فأنا معذب بصورة لايمكن لك تخيلها، معذب حتى لأعجب كل يوم من قدرتى على احتمال الحياة حتى الغد، لو وافقت نتزوج اليوم.

وقفت أمام السيد البدوى فأخذت تقرأ الفاتحة.

- ذبحتنى. رجوت الصداقة لا الصدقة.

نادت على أحد الشحاذين واعطته شيئا وأشارت إلى محل أحد التجار المحيطين طلبت منه أن يناديه، أخذت صوت بكائها يعلو.

- لن أراسلك أيضا.

- سناء أنـ..

- لاأريد رؤيتك مرة أخرى، وها هو عقد الفل.

رمته بعنف نحوى.

جاء التاجر ليجدها تنوح وأنا فى رعب من تكرر انهيار الصباح.

سألها بلهجة منذرة.

- هل ضايقك الأستاذ فأجابت بارتياع:

- كلا.

وعندما ودعتها لم ترد وداعى.

لطالما اصطحبتنى جدتى إلى ضريح السيد البدوى متوسلة إليه بطهر طفولتى لكى يعيد إبى الأسير.

رفضتنى سناءوأنا أرفض العالم أو يرفضنى، الأمر سواء.

بدوت فارسا شهما امام رئيس القسم والزملاء لكن هل كنت سآتى فعلا، أم كانت الرحلة مقررة سلفا من أجل جدتى. إن كنت عاجزا عن أعرف باليقين مايدور بنفسى فعلى الحقيقة السلام.

قلت لعادل :

هل تعرف لماذا تدور الأرض حول محورها من الغرب الى الشرق؟.

أجاب ضاحكا:

- حتى تبرغ الشمس على نافذة العميد وتغيب امام العشاق فى كازينو كروب!.

ثم تمتم فى جد:

- من يعرف اتجاه دوران الاليكترون حول النواة، ومن يعرف اتجاه دوران المجرة وما علاقة ذلك بالطواف حول الكعبة.

برقت عيناه فى لوعة عاشق مخذول حتى خلت اننى المح فيهما مشروع دمعة لكنه سرعان ما عاد الى سخريته:

- عندما تسمع بعينك وتشم بأذنك سوف اجيبك!!.

ميدان الساعة فشارع البورصة فميدان الجمهورية فشارع الجيش، الأسماء أسماء فقط وهى لا تدل على شيء، الطريق الزراعى، شوارع قرية الشهيد فهمى عبد الله مع ذلك احتفظت باسمها القديم الذى لا معنى له، كلما أتيت أحسست أن الشوارع أكثر ضيقا، يخيل إلىّ أنها ستضيق وتضيق حتى تنطبق ذات يوم علىّ.

قابلتنى عمتى مرحبة ومتسائلة :

ـ من أخبرك.

ـ أمى.

ـ لابد أن خالتك أخبرتها.

ـ كيف حالها الآن.

ـ الحمد لله، ترفض الطعام والشراب، لكنها بعد توسل أكلت.

ـ هذه علامة سيئة ياعمتى، تدل على اقتراب النهاية.

ـ ربك يتولانا جميعا.

ـ ماذا حدث؟.

ـ استيقظت من النوم فى الأسبوع الماضى متكدرة وهى تروى حلما رأته عن انكسار فرع كبير من شجرة الجميز التى تظلل على البيت، قالت أن هذا فأل سئ بالنسبة لأبيك، وأنه يمكن أن يكون الأن فى محنة، ولعله يموت، فاض بى، لم أحتمل، فقلت لها يا أمى ارحمينا وارحمى نفسك لقد مات وشبع موتا، فصرخت مهتاجة، فقلت لها مات منذ ٦٧، وظللنا نريحك طول الوقت بتصنع انتظاره، الآن أريحى نفسك وأريحينا فقد مات.

ـ كنت قاسية عليها.

ردت فى تبرم:

ـ كل منكم ذهب إلى حال سبيله، يأتى كضيف، لا يعانى شيئا، وفى النهاية ألام. ٢٥ سنة وأنا أتحدث معها فى الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وأحيانا عندما تقوم فى نصف الليل، لا تتحدث إلا عن أبيك: قلبى

يشعر أنه قد أن أوان مجيئه، نظفى غرفته فقد يأتى اليوم، لابد أن تحرصى على طعام إضافى فقد يأتى فى أى وقت، ٢٥ سنة وهى لا تأكل إلا بعد الاطمئنان على طعامه، لا أستطيع إصلاح أى شئ أو ترميمه إلا بعد التوسل إليها بأنه سيغضب لو حضر ووجده كذلك. أنت تذكر، ظلت السيارة مرفوعة أكثر من عشرين سنة فلا هى سمحت ببيعها عندما لم يكن لوجودها ضرورة، ولا هى وافقت أن يستعملها من الأسرة أحد، ولعلك نسيت ما فعلنا حتى سمحت لك باستعمالها، أنت بذلت جزءاً من المجهود لإقناعها، لكنك لا تعرف كم استغرق منى ذلك. ثم تتهمنى بالقسوة.

وانفجرت باكية. أربت علها، أحتضنها وأقبلها:

- يا عمتى أنت روح هذا البيت، لا أقصد الإساءة لك.

واصلت النحيب، يا يوم أيوم أينما توجهت فيه أغرقنى طوفان دمع.

- يا عمتى أنت أمى، ليس لى أم أخرى، فهل تغضب الأم من ابنها.

أى حديث فيه تعريض بأمى يقابل فى هذا البيت بالارتياح والترحيب، خاصة إذا صدر منى، كما لو كنت قد شاركتها فى جريمتها، وتعريضى بها نوع من الاعتراف بالذنب.

- سأعد لك الطعام.

ثم مردفة فى سخرية:

- طعام أبيك. إذهب إلى جدتك، إجلس معها إن لم تكن نائمة. حدثها قليلا فهى ترفض الكلام معى.

لا فرق بين هذا البيت والقبر، وثمة رائحة نفاذة كأنها رائحة الموت أو تجمد الزمن.

ـ السلام عليكم.

صرخت صرخة هائلة راعنى أن تصدر عن جسدها المتهالك حتى خلت أنه مع طلوع الصرخة روحها ستطلع :

ـ فهمى.

ـ أنا محمد يا جدة. كيف حالك.

ـ تعال يا فهمى، تعال يا حبيبى، أوحشتنى، أين كنت، أسبوع بطوله وأنا أنتظرك.

نهضت من فراشها مرتجفة تتمايل حتى أدركتها قبل أن تسقط، أخذت تتحسس وجهى وجسمى.

ـ لماذا لم تكتب إلينا، أنا قلت لهم أنك تكتب لكن الخطابات تضيع.

قلت فى صوت خافت متردد:

ـ يا جدة : أنا محمد.

ـ هل جرحت يا حبيبى، هل أصبت، أنا قلت لهم سيأتى، لم يصدقونى. لكنى صدقت قلبى.

ثم بصوت عال :

ـ الأكل لأخيك يابنت.

ـ تعال يا حبيبى، سأحكى لك، أشياء كثيرة كثيرة، ماذا كنت أريد، لقد نسيت، اللهم صل على محمد.

ـ اجلسى يا جدة، أرقدى.

وساعدتها.

- هل رأيت محمد، محمد فى المدرسة الآن، ستفرح به عندما تراه، ربيته لك ......

صمتت، ثم تردد شخيرها فى أرجاء الغرفة فانسحبت فى صمت.

لا أريد أن آكل يا عمتى، لا أريد أى شئ. إن كان ثمة ما أريد فهو الموت.

- هل تأكل أولا أم تصلى العصر.

أنا لا أصلى يا عمة، لكنى لا أجرؤ على البوح.

كانت الجمعة يؤذن لها وأصرّ عادل أن أذهب للصلاة معه فذهبت.

- أنت تدهشنى.

- لماذا؟.

- ظننتك لا تصلى.

- أنا فعلا لا أصلى.

- لكنك صليت معى الآن، وكنت متوضئا استعداد لها،.

- لكننى لم أتوضأ.

- أصلّيت دون وضوء .

- أجل.

نظر إلىّ فى ذهول، كظم غيظه وغضبه وخيبة أمله.

فترت علاقته بى بعدها بضعة أسابيع، كأنما أدرك أننى حالة مستعصية لا أمل فى شفائها وأن كل جهده سدى، لكنه بعد ذلك عاد. فلماذا لا تعود هذه المرة أيضا. أنا جريح يا عادل، أنزف، أحتاج إليك.

ـ صليته يا عمتى.

ـ أين.

ـ فى السيد البدوى.

نفسى تعاف الطعام لكننى. لو رفضت لا عتبرت عمتى رفضى إهانة، أنت الأخرى معذبة يا عمتى أعرف، لكن ماذا أستطيع أن أفعل لك أو لجدتى أو لسناء وآمال وكوثر وعادل بلال، وزوج أمى، ماحيلتى أن الله خلقك عاقرا، فتطلقين بعد سنوات وتؤولين إلى بيت جدتى، أذكرك شابة، أذكر جدتى أيضا رغم وطأةالسنين حية، ما أصعب أن أصدق أن هذه العجوز المخرفة بالداخل كانت كل حياتى ذات يوم وما أصعب أن أصدق أنك أنت، ماذا يحدث، ماذا يفعل بنا الزمن، أيأتى يوم أكون فيه مثل جدتى ومثلك، ما أبشع الدنيا إذن.

ـ ترى من أخبر أمى؟.

ـ خالتك أكثر الله خيرها.

ثم معرضة كالعادة بأمى :

ـ وأكثر الله خير الهانم التى أتعبت نفسها وكلمتك.

أهذا هو البيت الذى كان يعج حيوية ولا ينقطع زواره.

ـ كل.

ـ شبعت يا عمتى.

ـ كل وإلا غضبت.

يا عمتى يوجد صرصار مطهو فى الطعام وأنا أقاوم الغثيان، لو قلت لك ستقسمين بأغلظ الأيمان أنها أجزاء من التقلية، حتى لو هز شواربه أمامك

ستقسمين، فإذا رفضت تكذيب عينىّ وتصديقك لانفجرتِ فى البكاء مرة أخرى، وأنت تسلطين عينيك علىّ فلا أستطيع التخلص منه، ما الفرق، الدجاج يأكل الصراصير وأنا آكل الدجاج والدود يأكلنى، ثم ماذا لو تقيأت أو حتى مت، ما الفرق بين الصرصار والكافيار والجمبرى. أمد يدى فأحتوى الصرصار فى الملعقة وأدسه فى فمى.

- قلبى يتمزق من أجلك يا عمتى، هل أستطيع أن أساعدك بشئ؟.

- لا يا حبيبى ربنا يتولانا جميعا برحمته.

- ألا يساعدك أحد.

- مشغولون فى بيوتهم وبأبنائهم، كان الله فى عونهم.

ثم مردفة بمرارة ساخرة:

- لكنهم والحق يقال لا يكفون عن توصيتى عليها.

- سأقضى الليلة معك، لعلى أساعدك فى شئ.

- قلبك لا يحتمل الحزن مثلى يا حبيبى، وأنت لا تطيق البقاء.

أتعطفين أم تعتبين.؟؟

- سأريحك هذه الليلة، سأتكفل بها تماما.

- لا يا حبيبى، سافر بسلامة الله.

ثم مغمغمة كأنما تحدث نفسها.

- ماذا تفعل ليلة فى عشرة آلاف ليلة.

- ....

- ولو حدث شئ سأعرف كيف أتصل بك.

فى طريق عودتى كنت أشعر بثقل الزمن وأكاد أسمع بأذنى قرقعة ظهرى وهو ينوء بحمله كسقف خشبى يوشك أن ينهدّ.

هل تعرف يا عادل، أحيانا يستبد بى الخيال، يصبح أكثر منطقية من الواقع، وأكثر واقعية من وجودك أمامى، أفكر أحيانا أننى آدم !!! هل تتصور !! أنت أيضا آدم، لم يخلق الله من البشر سواه، ثم أطلقه فى الدنيا، كن ما شئت، كن انسانا أول بدائيا متوحشا، كن رائد فضاء، كن عالما، جاهلا، عاشقا، معشوقا، محاربا، مسالما، ميتا، حيا، طبيبا، مهندسا، كاتبا، أميا، خليفة، عبدا، حرا، مريضا، صحيحا، جميلا، قبيحا، بشعا، نزيها، شريفا، حقيرا، خائنا، مخونا، قاتلا، مقتولا، كن كل ما يصبو خيالك اليه، كن كل ما يعقب كلمة لو كنت، كن ما شئت، تقلب على ذلك كله وفيه كله ومارسه كله، توالد بذاتك فى ذاتك داخل ذاتك، وما أبناؤك إلا ثمار بذور خيالك، هاهو واقع، فأرنا ماذا ستفعل، افعل ما شئت وكن من شئت لكنك ستظل مع كل نبضة قلب تكفر عن معصيتك، يظن من يظنون أنهم أبناؤك أنهم يألمون لكنك أنت المتألم، مهزوما أبدا ستظل، لن تنال راحة وان تصل الى سعادة، ولن تستقر، لن تصل الى صواب ولن تركن الى يقين، أما إلى متى فعلمها عند ربك، لكن أغلب ظنى أن ذلك

سيستمر حتى لا تبقى لك حيلة لم تحاولها، ولا ذنبا لم ترتكبه، ولا عذابا لم تعانه.

لماذا نظر عادل نحوى هكذا ساعتها؟ ! أظننى مجنونا؟ فليأت لى بدليل اذن على ان اللحظة الماضية مرت ولن تعود أبدا، أن من مات مات، وأن ماحدث حدث. ظُنّ بى الجنون كما شئت فإن لى فيه جذورا راسخة، وجدتى على ذلك شهيدة، لكنك تصر على أن كل شئ له معنى، حتى ذيل هذه السحابة السابحة فى الفضاء له معنى، وقد يكون شفرة، رمزا، علامة، على انتهاء حضارة أو ميلاد أُمة، أو سرا هائلا فى الكون لم يكتشف بعد، أو ملاكا يحوم ويرصد، أو شيطانا يحرض، أو روح انسان معذبة ضائعة، أو تجسيد حلم، أو رسما لمعنى أو حربا عالمية، أو موت أب مجهول على رمال الصحراء لا يعرف ابنه كيف مات ولم.

حدت عن الطريق الجديد فى بنها، فدخلت المدينة، عند صيدلية توقفت لأطلب أقراص النوفالجين :

ـ هل يوجد أيضا أقراص أتيفان.

ـ يوجد لكنها تصرف بروشتة.

ـ أنا طبيب.

ـ آسف يادكتور لكن أحد زملائنا مسجون الآن لسبب كهذا.

ـ هل الفينوباربيتال أيضا دخل قائمة المخدرات.

ـ لا.

ـ إذن أعطنى علبة.

ـ ١٠ ميللى أم ٢٥.

ـ ٢٥. هل يمكن أن آخذ علبتين.

ـ تحت أمرك، وثلاثة إذا أردت.

ـ إذن أعطنى ثلاثة.

خطأً غير مقصود لصبى الصيدلى الجاهل يترتب عليه مو ت إنسان له معنى، ودموع القهر والذل والانسحاق التى تهطل من أعين البؤساء هى الأخرى لها معنى، ومساعدةالمشلولة للعمياء والعاقر للهيكل البشرى لها معنى، والحروب التى نشبت ليموت فيها آلاف وملايين، كان لها أيضا معنى.

وبصقة الرجل نحوى لها معنى.

لماذا يسفهون الحرب التى مات فيها أبى إذن. ترى هل يأتى بعدنا من يسخرِ من حرب ٦٧ كما نسخر نحن الآن من حرب البسوس، وهل يأتى يوم يسال طالب فى مدرسة عنها فيخلط بينها وبين نافارين أو قادش أو حرب الخليج.

بعد خمسين عاما لو سأل أحد عن أبى لاتهموه بالجنون.

أكلّ ذلك أيضا له معنى.

ملعون أبوك يا عادل.

كـنـا فى غرفته فى بيت الآطباء :

ـ صاحبكم يخفى تحت ملابسه جُبَّةَ شيخ وأفكار دجال.

سلطت الأباجورة على وجهه فى استفزاز قائلا:

ـ الضوء الطبيعي غير كاف لكشف ملامحك.

لم يفتنى توتره ومحاولته السيطرةعلى نفسه، رغم ابتسامته الشاحبة.

ـ هيا افتحوا أى موضوع كى يدلى المتنبى فيه برأيه. ما من أمر ليس له فيه رأى، وكل رأى عنده له معنى.

عادل على صواب مطلق، جدتى أيضا على صواب مطلق، أنا ألوحيد المخطئ المعوج الذى لا أفهم، أنا الوحيد الذى ابن كلبـ...ـة، أيها الهيكل العظمى التعيس، لماذا جعلت نفسك كل حياتى، لم يكن لى سوى رأيك رأى، لا عن اقتناع بل عن خوف، حتى أننى كنت أتخيل الضياع خلف أى أعتراض منى، ليس الضياع فقط بل نار جهنم أيضا، ثم تموتين الآن، لا أفكر فى صواب رأيك أم خطئه لكننى أفكر أنك جعلتنى أوقن أن الإيمان بك دون تفكير هو المهرب الوحيد من الجحيم، جعلت من نفسك ربا، وجعلت من أمى شيطانا، وجعلت عبادتى لك وصلاتى وقربانى أن أرجمها وألعنها. وقد أوافقك، بل بالتأكيد أوافقك أنها تستحق اللعن لكن ما أقسى أن يكون هذا اللعن منى أنا، وكل اللعنات التى كانت والتى ستكون لم يصلها منها شئ ولم يصبها سوء، لكنها دمرتنى أنا. أنا غير قادر على الغفران لها، ولا لك أنت أيضا يا جدة، ولا لأى أحد فى هذا العالم. أنا غيز قادر حتى على

الغفران لأبى، كأنه تركنى باختياره، وتظنون أننى ابن الشهيد لكننى والله أنا الشهيد.

قال الجلف :

– من الأفضل أن تقدم طلبا جديدا مشفوعا بتوصيتى. سيكون أسرع وسيكون التليفون باسمك.

– لكننى أريد الطلب القديم وأريد التليفون باسم أبى.

لم تفهم أمى سبب غضبى عندما ألحت علىّ أن يتدخل زوجها للتوصية. كنت أريد منها توكيلا لأنها إحدى الورثة، أو أن تأتى معى إلى هيئة التليفونات للتوقيع، فى البداية رحبت، لكنها بعد أن استشارت الجلف عرضت مساعدته فرفضتُ فألحّت، لعلهما يظنان أننى أرفض خجلا أو محاولة لإثبات الرجولة بعدم الاحتياج ، لكن إن كانت هى ساذجة هكذا فهو ليس كذلك، هو يفهمنى، ويعرف منذ البداية أننى سأرفض لكنه يعبث بى، كى أكون أنا الجلف ويكون هو التقى الورع، فما أشد غيظى. إفعلى ماشئت، بولى وغيطى لكن ليس فى محرابى. إلا هذا.

ما أغضبنى أكثر، ماقتلنى، أنها بعد أن غضبت، لم تفهم سبب غضبى فنظرت إلىّ فى حيرة من ينظر إلى مقعدٍ يرفض العون الذى يحتاجه أشد الحاجة. أيتها المرأة التى لا قلب لها أنا لا أريد التليفون فهل فهمت، كيف تستطيعين ولو استطعت ما فعلت. أنت قتلتيه ميتا وهذا أشد من قتله حيا.

لو أن الطبيعة كانت تسمح بالشك فى الأمومة كالشك فى الأبوة لشككت فى أمومتك لى.

لا أعرف ماذا فعلتيه معه عندما اعتقلنى، لم يفتح الموضوع قط، وبعدها لم أقرب بيتك وبيت أولادك وزوجك، لكن كل حين وآخر يوصى بى الجلف، فأفاجأ بمن يقول: أنت ابن أخت اللواء صادق فأهتف لا، لكنهم لايصدقوننى ويصدقونه، بل ووصل الأمر إلى أن بعض المتطرفين فى الكلية ظنونى جاسوسا له، والبعض الآخر جزم بأننى أنكر القرابة خوفا من عمليات إرهابية توجه إلىّ نكايةفيه، وآخرين قرروا أننى لابد أعلم حجم الكراهية التى يكنها الناس له، وأحاول تجنب تبعاتها.

الآن أذكر نظرة إبراهيم وأذكر لم ذكرتنى بك، عندما تسللت من قرية زوجك المجاورة إلى بيت خالتى، فاصطنعت حيلة كى آتى لك دون أن تشعر جدتى، وتوسلت إلى أن أنهى قطيعتى، كنت تطلبين وأنت واثقة من عدم الإجابة، وكان ارتباك خالتى يوحى بأصداء فضيحة قديمة، لم يتسن لى أن أعرف تفاصيلها قط، وإن كنت أحسها كل حين وآخر، فى كلمة تفلت، أو صمت مفاجئ، أو نظرة عين أوخلجة ملمح. لكن الذى أعرفه، أنها كانت المرة الأولى التى تدخلين فيها القرية منذ تركتنى، كانت خالتى تصحبنى أحيانا لأراك سويعات فى كازينو البوريفاج بطنطا، كانت كل مرة تشدد فى التذير الا تعرف جدتى، ولم أقل أبدا، لأننى كنت أريد أن أراك.

استجبت لنظرتك البائسة اليائسة، وعدتك أن أحضر وأنا أدبر أمرا.

فى الخفاء دسست فى حقيبتى ثيابا لأبى، أطلقت شاربى، وأخذت

أحاول وأحاول حتى وصلت أخيرا إلى تطابق شكلى مع صورته الوحيدة التى لدىّ. نويت أن أحضر إليك مرتديا ثيابه، متخذا سمته كما تخيلته، حاولت فلم أستطع، إذ كيف لى أن أنسى تلك الليلة الفاجعة التى قضيتها فى بيتك حين استيقظت فى هزيع الليل الأخير لأسمع فحيح مالم تحاولا خصف ورق عليه، والجلف العتل انتظر حتى غادرت فراشى فدخل يغتسل ثم خرج يقطر الماء من جسده ناظرا نحوى نظرة انتصار، أما أنت فكنت منتشية سعيدة. وقلت له :

– لقد دافعت عن جميع النظم بنفس الحماسة، لم يكن لك رأى قط. كيف يتوافق هذا مع تدينك.

– ماذا تفهم فى الدين يا أبا شخة.

– أتخيل أحيانا أنك تقرأ فى الصلاة: قل هو الرئيس أحد، الرئيس الصمد، لم يلـ....

فكيف كنت أستطيع أن آتى بعدها، غير أن ذلك لم يكن السبب الوحيد فى قطيعتى. ذلك أننى فى بيتك غريب غريبتين. أبناؤك ليسوا إخوتى، وهواء بيتك مسموم. وأنت تبدين مع الجلف سعيدة فينذبح قلبى، كأنك ماكنت لأبى، أما كيف تمزجين الماء بالنار واللبن بالروث فأمرك وشأنك، وليست نقمتى عليك أنك تخليت عنى، أو انك تزوجت بعد أبى هذا الجلف، لكن ما أنقمه عليك، الذى لن استطيع أبدا غفرانه ولا نسيانه، أنك قطعت بينك وبينى ذلك الشيئ المتناهى فى الدقة والعظمة، كالهواء، أضخم المخلوقات تحت الشمس وبالرغم من ذلك لا يرى، لا ظل له، أنت قطعت ذلك الشئ الذى لا يوصف والذى يربط الإبن بأمه، كالحبل السرى للجنين،

وبديله بعد أن نولد، أنك قطعتيه ولم تصلى شيئا فتركتينى طول الوقت أدمى وأنزف، والأنكى أنك لم تدركى كم أتعذب، فذلك وقدس الألم لن يُغفر لن يُغفر لن يُغفر.

فى شارع الكورنيش خيل إلى أننى لم أغادر القاهرة بعد ظهر اليوم بل منذ قرن. توقفت لأشرب زجاجة مثلج وأدس فى فمى قرصا من النوفالجين وقرصين من الفينوباربيتال.

يالها من نشوة أن أدخل البيت ولست خائفا من غول النوم.

لو استعصى سأقهره بقرصين آخرين. ألتقط بين القصرين، لو أكملتها مرة أخرى لكانت العاشرة. الباب يطرق، فيخفق قلبى، هل هى شوشو أم عادل بلال أم آمال، أفتحه لكننى لا أجد أحدا. أعود إلى السرير، تهتاج غريزتى لذكرها، كنت منتشيا لكونها إسرائيلية، فكرت مرة أن أتعقب سائحا إسرائيليا فى الشارع لأقتله، هو أو أبوه أو أحد أقاربه ربما يكون طارد أبى فى الصحراء والعطش يقتله، لكنه لم يقتله على الفور بل عبث به وسخر منه وعذبه حتى قتله، لم يكن ما مارسته معها جنسا بل غزوا، إغتصابا، ثأرا، غضب السنين وقسوتها وألمها، أحملق فيها، منهمكة مغمضة العينين، تائهة عن الدنيا،الصدر البارز كتلة دهنية تحوى غددا لبنية، والجلد المتمرد على الثياب التى تغوص فيه ليس إلا طبقات من الخلايا تحتها طبقات، وملامح الوجه الجميل جمجمة مكسوة، وليس مابى شهوة جامحة بل غضبا

جامحا، تبدى المرأة فنونا لم تخطر لى على بال، تنم عن باع وخبرة، فتساءلت أى خبرات اكتسبتها أمى من أبي فجرت بها النشوة من زوجها، ويعتصر قلبى، ينسلخ غشاء التامور حوله فيترك عاريا يقطر منه دم.

رأسي يدور ....

وجدت نفسى ضابطا، ووجدت نجيب محفوظ متهما أمامى والقيود فى يديه، أنت متهم بترك فهمى عبد الله يموت فى ٥ يونيو ٦٧، دون ثمن، ودون أن تعترف كيف قتلته، وأين ومتى بالضبط، أجاب فى ارتباك أن الذى مات هو فهمى أحمد عبد الجواد وليس فهمى عبد الله، وأن ذلك حدث سنة ١٩ لا ٦٧. فعجبت كيف يكذب وسألته لماذا أحضروك الى السجن اذن، فقال : اتهمنى زوج أمك بقتل كمال أحمد عبد الجواد وعمر الحمزاوى فسألته هل وجد جثتيهما فقال عمر الحمزاوى مات فى المعتقل وكمال مات فى مستشفى الأمراض العقلية فقلت له لعلك تقصد العكس قال بل أقصد ما أقول، وفجأة دخلت أمى هلعة فقلت لها أنت خديجة وأنا لا أعرف، فنظرت الى فى عتاب صامت مرير لأننى لم أعرف أنها عائشة، وتغير المشهد واختفت أمى، وإذا نحن فى القصر العينى، وأنا أجرى غسيل معدة لنجيب محفوظ بعد أن حاول

الانتحار، وقلت له أنت أب من لا أب له وأم من لا أم له فكيف تموت فقال لن أموت بل كنت أكتب قصة ينتحر فيها البطل بالسم فتسممت، قلت له لكنهم نشروا فى الصحف أنك مت فقال بل مات جمال عبد الناصر ويوسف ادريس فقلت وأبى. قطع علينا الحديث دخول رئيس القسم فجأة فقلت له انظر مع من أتحدث كى لا تظن أننى أهددك بخالى، فسأل من هذا فنظرت مشدوها اليه قائلا ألا تعرفه فقال أليس هذا هو الطفل الذى حولناه الى قسم الجراحة فنظرت إلى نجيب محفوظ مفجوعا لوجود من لا يعرفه فاذا به هو أمين لكن بحسنة نجيب محفوظ على خده.

استيقظت وأنا من الكرب فى غاية.

الثانية صباحا، لو أخذت أقراص الفينوباربيتال مرة أخرى لن أستطيع العمل غدا. بدت لى الساعات القادمة حيوانات مفترسة كانت تنتظر على الوسادة بجانب رأسى وأنها لن تلبث حتى تغرس فىّ أنيابا ومخالبا. هرعت لا ألوى على شئ، ارتديت ثيابى ونزلت، أدور بسيارتى فى الشوارع، ثمة سكارى وقوادون وداعرات، والسيارة تنساب بى، علىّ تجنب كوبرى الجامعة فهناك نقطة تفتيش خوفا على السفارة الإسرائيلية، وليس لدىّ مايُخشى، لا عن طيبة طوية ولا عن سلامة نية ولكن عن عجز وقلة حيلة،

لو استطعت يوما أن أفعل شيئا، بالنشوة القسوة على جبار مجرم قاتل، آه لو استطعت لوقدرت، لطالما رسمت الخطط ونفذتها فأذهلت العالم وشفيت قلبى، أحصل بصورة من الصور على خريطة للمنطقة، وفى مكان بعيد أجهز غواصتين صغيرتين فى النيل أسلحهما بما لا يخطر على بال، فى قلب الليل أتحرك بالغواصتين، كيف أتحرك بهما معا، مشكلة إجرائية سأحلها بطريقة ما، أنسف سفارة أعداء أبى، قتلته، يهتز العالم، يأتى مسئولون من شتى أرجاء الدنيا، فأراقبهم، إذ أننى بصورة ما قد ركبت هناك أجهزة سمعية بصرية تنقل لى ما يحدث، أقول لهم أنا فعلت هذا فيصرخون من أنت، فأقول أنا الشهيد، فيقولون زدنا إيضاحا، فأقول أنا الشهيد ابن الشهيد، فيقولون زدنا، فمثلك فى مصر وحدها مائة ألف كيف نبحث فيهم، فأقول لهم هل تعلمون ماذا كان أعداء أبى يفعلون حين ينسفون مكانا، فيطأطئون رؤوسهم، فأصرخ فيهم: أنا أقول لكم، كانوا يأتون بعد ساعات لينسفوا المكان المنسوف مرة أخرى، هل تعلمون لماذا، أنا أقول لكم، فبعد ساعات يكون المكان ممتلئا بمسئولين مثلكم وبسيارات إسعاف وإطفاء وضحايا لم يموتوا بعد، كانوا ينسفونهم وهم يحاولون إنقاذ المنسوفين، فيصرخون وقد بدأوا يفهمون : ماذا تنوى، فأقول هل تذكرون بحر البقر وأبى زعبل فيصرخون ماذا تنوى، والسويس والاسماعيلية وسلوى حجازى فيصرخون ماذا تنوى، و١٥٠٠٠ فى سيناء فيصرخون ماذا تنوى، وعظام الأطفال المهشمة فيصرخون ماذا تنوى، فأقول أنوى أن أفعل بكم ما فعلتموه بنا، فيصرخون لكنك لست سفاحا مثلهم، فأقول يا أبناء الأفاعى أنتم منهم ومنهم أنتم، سأنفذ فيكم شريعتكم، ألعين بالعين والسن بالسن والبادى

أظلم، فيصرخ حاخام ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فأطلق عليهم صواريخ الغواصة الأخرى وأنسحب بغواصتىّ أخفيهما لمهمة أخرى.

أضحك عندما أمر على كوبرى قصر النيل فأرى أسوده الحجرية فأتخيل أننى أبدلتها كلابا أو قرودا، ويصبح الصباح فتتكتم الأجهزة ما حدث ويبدلونها فأبدلها ويسوء موقف زوج أمى فيقال، لو وافقت سناء اليوم لدعوت أمى، الجلف سيشمت لكننى أدفع نصف عمرى كى أرى وقع الخبر على أمى، نصف عمرى الآخر أعطيه لعابر سبيل لا أعرفه، أسير فى شارع التحرير، ثم أنحرف يمينا إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز، لماذا لم يغيروا اسمه، لماذا لم يصر كاهانا أوعساف ياغورى، أنحرف إلى شارع عبد المنعم رياض ثم إلى شارع الفالوجا فشارع جمال عبد الناصر، أعود من العجوزة إلى شارع جامعة الدول العربية فاضحك عندما أضيف إلى الاسم والإسرائيلية، أعبر الميادين إلى شارع السودان ثم شارع جدة إلى الحسين إلى المدينة المنورة إلى طيبة إلى الحجاز إلى العراق إلى دجلة إلى الفتح إلى ميدان البصرة إلى ميدان أنس بن مالك إلى شارع دمشق، وأعود إلى شارع مصدق، أجد نفسى فى ميدان لبنان ثم شارع الجهاد ثم شارع الإسراء فأعود إلى جزيرة العرب إلى شارع صلاح الدين إلى شارع على بن أبى طالب إلى شارع عثمان بن عفان، ثم أدور حول ميدان النصر إلى شارع جامعة الدول العربية مرة أخرى، تاريخ كامل تحمله أسماء الشوارع فلماذا لم يغيروها إن كان علينا أن ننسى، كل اسم منها يذكرنى على وجه من الوجوه بأبى، أين كنت فى هذه اللحظة منذ ربع قرن، فى العريش أم غزة أم شرم الشيخ أم أم أم أم، أعود إلى شارع ٢٦ يوليو. أعبر النيل، النيل

الطويل الأبدى، هل يسخر منى، أم لا يشعر بى، لو أن لى عمره لنظرت إلى كل شئ ساخرا، ولو أنى كنت أحارب فى حطين لتحملت مرارة هزيمة ٦٧.

أدور حول تمثال رمسيس، محطة السكة الحديد، ما أشد حسدى لهؤلاء الرائحين إلى مكان مهرولين بكل الهمة والعزم والخوف من التأخير، وثمة صفير قطار طويل مبحوح مشروخ كأنه ينوح نيابة عنى، كأنه ينعى شيئا، أو ينذر بكارثة فيطلق تلك الصرخة التى لا يستطيع إنسان أن يطلق مثلها فى طولها وعرضها وعمقها وموجاتها؛ ومع ذلك تبدو أحيانا هى الوسيلة الوحيدة للتنفيس عما بداخلى. ربما لأن الوسيلة مستحيلة فالغاية لا تبلغ، ثمة أيضا جماعات من الناس جالسة وواقفة بل وراقدة ونائمة على الطوار، ينتظرون فى هدوء ووداعة وأناة وصبر وغباء. لعلهم ينتظرون حافلة أو سيارة بيجو أو مقاولا يأخذهم لعمل، أو لعلهم لا ينتظرون شيئا أبدا لكنهم لا يحسون مللا ولا قلقا ولا سأما، ولا يخشون النوم مثلى، ولا يبحثون عن أب يعلمون أنه مات، أحسد أيضا ذلك المتشرد الذى فوجئت به يقف على رصيف المترو فى شارع الجلاء، كاشفا عورته ويبول فى نهر الطريق مستمتعا باندفاع البول، محاولا أن يصل إلى الحد الأقصى، سلّطت عليه كشافات السيارة وانحرفت نحوه فى سرعة مترقبا وقع المفاجأة عليه، لكنه لم يتحرك، وفى اللحظة المناسبة رفع عضوه فنال من سيارتى رشاش بوله، فابتعدت عنه وأنا أسب وألعن وهو يقهقه ضاحكا.

أنحرف فى شارع فؤاد. أيامك يا أبى كان أسمه ٢٦ يوليو لكن هذا الاسم اندثر كما اندثرت. مكان الأوبرا التى قرأت عن عشقك لها فى أحد

خطاباتك جراح متعدد الطبقات، لم أدخلها مثلك، احترقت فنقل زوج أمى إلى القاهرة مكان زميل له طُرد من الخدمة، لم يكن زواجهما قد أعلن بعد، لعلة تزوجها فى السر، لكن الأكيد الأكيد، أن الزواج كانت له مقدماته، أنها خانت أبى وهى تحمل اسمه وتعيش تحت سقف بيته، وجزء من طعامها ولباسها اشترته بتعويض موته، وأصرّت جدتى على كفالتى ولم تمانع أمى وسألنى الشيخ فقلت جدتى، لم أعرف أبدا هل كانت جلسة فى محكمة، أم مجرد مجلس فى القرية، الحديث فى كل ذلك محظور، لاينطق به أحد، مرت بى أيام كنت أموت رغبة فى معرفة ماحدث، لكن الخجل والكبرياء وجدتى منعونى.

محطة حسنى مبارك محطة أحمد عرابى محطة جمال عبد الناصر ثم محطة أنور السادات، ميدانه، أدخل فى شارع سليمان إلى الميدان فأفاجأ بتجمهر أمام مكتبة مدبولى وسيارات شرطة وبولدوزر ضخم وصياح، يشدنى فأنزل، عرفت الحكاية من الناس، جاءت شرطة المرافق لتزيل الكتب من على الطوار، فتجمهر الناس وحموا الكتب بأجسادهم حتى استدعوا صاحب المكتبة فأتى وأخذ الناس يدخلون الكتب إلى المكتبة، وهو يحدث عميد الشرطة بمرارة: هل اكتشفتم بعد أربعين عاما أن كتبى تشغل الطريق، وقلت له بلا صوت أجل كتبك تشغل طريقهم، بدت مقدمة البلدوزر كوجه زوج أمى، لكن عليهم أن يزيلوا مكتبتك ويغيروا أسماء الشوارع واون العلم الذى حارب أبى واستشهد تحته، وددت أن أسألك أنت الآخر هل تعرف أبى، وجه لا أعرفه يتمتم بصوت حرص على ألا يصل إلى أسماع الشرطة «ولاد الكلب»، هذا المكان مزار كالهرم والحسين».

سألته هل تتردد عليها كثيرا فأجاب وهو يحتضن مجموعة من الكتب ليس ذلك مهما لكن هذه لا يأخذها البلدوزر ليلقيها فى القمامة، أهكذا بكى الأوبرا من لم يدخلها قط. هذا العميد سيجازى الليلة، سيوبخه زوج أمى، لماذا لم يتقن رسم الخطة، ربما سبه سبابا قبيحا ذكر فيه اسم أمه، لو أن الغضب يتحول إلى قوة، أنسحب عائدا إلى سيارتى، لو أن العميد جاء بقوته وأنا فى الميدان وحدى، أصرخ فيه صرخه يهتز لها الميدان، يأمر قوته بإزالة الكتب فأمسك البلدوزر بيد والشاحنات الضخمة باليد الأخرى وأطوح بها فى الهواء فلا تعود، ويقف العميد أمامى مرتجفا مذهولا فأهمس له بصوت رهيب : قدرتم وتجبرتم أتريد أن أقذف بك أنت الآخر فيتوسل إلىّ.

تلوح مآذن الأزهر والحسين ويشق أجواز الفضاء أذان الفجر.

أتوق إلى الدخول لكن بى صدًا فأحسد المهرولين وليت لى قلبا كقلبهم. لكن أين الطريق إلى بابك، زوج أمى يمسك مفتاحا وأمى تمسك مفتاحا وجدتى ورئيس القسم والعميد وشيخ الأزهر وحسن عبد الفتاح وعادل بلال، مامن حق، الكل باطل الأباطيل، وما لى من وجهة إلا وجهك. فبحق عذابى أتساءل كيف أحتمل هجرك لمعصية أتاها جدى الأول لا أعرفها إلا رمزا، ثم كيف أحمل إصر وزر لم أقترفه، أم أننى فى حياة أخرى، حياة لا أذكر عنها شيئا، قد أبيت أو عصيت، أو تعهدت بما نكصت عنه، فكيف أحتمل هجرك لنكوصى عما لا أذكر، عافيتك أوسع لى، عافيتك أوسع لى، عافيتك أوسع لى.

أعود لأمرّ من أمام الحسين. شدما أحبك أبى، أما جدتى فطالما أوصتنى أن ألتمس منك ومن أختك الحماية والبركة. لكنكما لم تستطيعا حماية نفسيكما ولا آلكما فكيف أنقم عليكما أن لم تحميا أبى.

وجه القاهرة المغسول بندى الصبح، فى هذه اللحيظات أنت لى، أما فى النهار فوحش مفترس وفى الليل بغى. ماذا تفعل أمى الآن. فى الليلة الرهيبة التى قضيتها فى بيتك كنت أسمع فى مثل هذا الوقت لهاثك ولهاثه.

باعة اللبن وباعة الصحف وعربات تحمل مؤونة معدة المدينة.

أقف بسيارتى على النيل، أجلس على مقعد حجرى، كم ألف عام وأنت تجرى، كم رويت وكم رأيت وكم صمت، لماذا لم يكن فى مائك سم من السموم يقتل الأفاقين والمنافقين والغزاة والخونة، تسمح لهم أن يبولوا فيك ويغوطوا وهاهم يتآمرون على سرقتك فلماذا لا تأتى بطوفان جديد يغرقهم جميعا.

تغسل الأمواج غضبى، لكننى أتساءل لماذا أنا غاضب هذا الغضب كله، وعلى من. وأكتشف ساخرا أننى لا أعرف الجواب لكننى أقول لنفسى أن الوحيد الذى أُقيم الحدعليه فى بلدتى ليس لصا أما اللصوص فمشغولون بإقامة الحدود.

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور يا دكتور محمد. لقد أتيت مبكرا جدا.

- أليس اليوم موعد أشعة الكمبيوتر والحقن الشرياني. جهزي لي المرضى لأصطحبهم.

- دقائق حتى أعطيهم العلاج.

- لا أرى راوية.

- لم تحضر اليوم.

هؤلاء المرضى التعساء وآلامهم الرهيبة، لأي ذنب، وذلك وجه آخر يا عادل لم أناقشك فيه، لأنك جفوتني وهجرتني حتى يخيل إلى أنك وإن لم تسع للقطيعة فقد تمنيتها ولك العتبى لكنك لا تشاؤها لأنك لا تريد أن ترضى ومعك حق، فأنا جمرة ملتهبة تحرق من يلمسها.

خطأ من مدرس الأشعة بالداخل يموت له مريض ويحيا آخر، خطأ الممرضة أو السكرتيرة في كتابة الأسماء تتمزق له قلوب، وتنخدع أخرى.

كنت طبيب امتياز في قسم الجراحة، وجدت مريضين ينالان رعاية خاصة وكل منهما في غرفة منفردة لا يدخلها من الممرضات إلا رئيسة التمريض ومن الأطباء إلا المدرسين. اكتشف السبب أخيرا، فمنذ عام ونصف عام حضر المريضان إلى القسم لتجرى لهما أشعة بالصبغة على القولون فثبت أن أحدهما سليم والآخر مصاب بسرطان في القولون، لكن مالم يدرك حينئذ، والذى لايمكن أن يدرك قط، أن الممرضة أو السكرتيرة

أو الطبيب لا أحد يعرف قد استبدل الأشعتين فأُخرج المريض واستؤصل قولون السليم، لم يكتشف الخطأ عندئذ لأن النائب هو الذى أجرى العملية، لكنهما عادا بعد ذلك لتكتشف الكارثة، فمن أجريت له الجراحة يموت من مضاعفاتها والآخر يموت من استفحال السرطان فى جسده، أحرقت كل أوراقهما السابقة وصدر الأمر أن يحاطا بالعناية حتى الموت.

أذلك أيضا له معنى يا عادل؟.

انفجرت ضاحكا وأنا أقول له :

ـ كله مكتوب.

فتمتم:

ـ أجل.

ـ لماذا كان كل هذا العناء إذن إذا كنت ستقول بعده ما يقوله أحقر مشعوذ فى قرية الشهيد فهمى عبد الله.

ـ وذلك دليل على صحة قولى.

نظرت إليه فى دهشة وأنا أظن به الجنون، لكنه قال:

ـ الماء الذى عرفه الإنسان الأول مازال هو نفس الماء الذى نعرفه رغم كل علوم الطبيعة والكيمياء والتكنولوجيا، لم يصبح الماء شيئا آخر، لكن معلوماتنا عنه هى التى تغيرت.

عدت بالمرضى إلى القسم، جلست فى المكتب، أشعر بالخواء،

صحراوات شاسعة تفصل بينى وبين زميلى الجالس جوارى يتصفح بشغف مجلة جنسية، فى الليل ستكون هذه المجلة بداية طبية لما سيحدث بينه وبين الممرضة. قلت له:

ـ من الممرضة المناوبة معك اليوم؟.

نظر إلىّ مستطلعا ما وراء السؤال فأومأت إلى المجلة فأطلق ضحكة صاخبة.

ـ هل تعرف أن اليوم هو ٢ يونيو؟!.

ـ أجل، فقد استلمت راتبى بالأمس.

أجلس على المقعد الحجرى بين المدرجين أنتظر آمال وأقرأ الفاتحة. ماحيلتى يا أبى ان كنت لا أعرف لك سوى هذا الشاهد قبرا. وبرغم ما لا تعلم فاننى أقرأ لك الفاتحة كلما تذكرت. بيد أننى أمارس صبواتى وأبدأ نزواتى أمام قبرك.

مع آمال أتحدث فى كل شئ إلا أنها تجد متعة خاصة فى الحديث عن الجنس، تجيد الاستماع إلى الطرائف وروايتها.

ـ من لا يعرفك يا آمال يظنك مومس.

ـ أنا حرة جدا برأسى لكننى أحافظ على جسدى.

ـ لماذا؟.

نظرت إلىّ بدهشة ثم أجابت:

ـ هل تعرف : لو كشفت ما تحت جلد رأسى لوجدت نقاب جدتى.

ـ هل يغضبك أننى فى اللحظات الخاصة مع شوشو أتخيلك مكانها.

قالت ضاحكة :

ـ يغضبنى لأنك اكتفيت بالتخيل.

ـ أنا لم أكتف لكنك رفضت.

ـ بالمناسبة ألم تأت لك شوشو بعد تلك الليلة.

ـ لا.

ـ ألم تحاول دعوتها.

ـ بعد اكتشافى أنها فلسطينية وليست إسرائيلية باخ كل شئ. ثقل علىّ الأمر حتى تخيلت يوما أن جدتى لا تخرف، وأن أبى لم يمت، لعلة فقد الذاكرة فى مكان ما، ولعله عاشر امرأة هناك فكانت شوشو.

ـ خيال جدير بالسينما المصرية.

ـ فى أحيان أخرى، فى لحظات الحب معها كنت أتخيل أن شخصا ينظر إلى من ثقب مفتاح، يسخر منى ويشمئز.

ـ لماذا.

ـ ليست هذه النشوة ما أتوق إليها يا آمال بل أتوق إلى نشوة مطهرة، عيبى أننى قرأت أكثر مما يجب وفهمت ربما أكثر مما هو مسموح به، أدرك جيدا أن سعيى للجنس ليس إلا اعتراضا وتمردا.

ـ ولماذا لا يكون استجابة لحاجة طبيعية.

ـ تخيلى يا آمال نفسك انقسمت إلى اثنين، واحدة بكامل ملابسها ووقارها تتفرج على الأخرى عارية تمارس الحب.

قالت ضاحكة.

- سوف تموت العارية ضحكا على المحتشمة، لأن العرى هو الطبيعة، تخيل أنت كلبا يلبس رباط عنق أو قردا يلبس معطفا، هى مناظر لا تراها إلا فى السيرك للإضحاك.

وضحكنا، وواصلت هى القول:

- أنت تخلط بين الأمور بصورة مضحكة، أنت أفطرت اليوم مثلا جبنا وعسلا وكوبا من العصير ثم شربت الشاى وأتبعته بالقهوة، لكل واحد منها المذاق الخاص والطعم الخاص، تخيل أنك مزجت ذلك كله فى الخلاط لتأكله، أى طعم مر بغيض سيكون.

لماذا تأخرت آمال.

تسمى هذا المكان المحراب وأسميه مقابر سيناء.

كلما سمعت أذنى طرقعة حذاء أنثى التفتت عينى.

هل أحبك حقا، هل يحب ذبيح؟.

كنا آمال ومصطفى وعادل فقالت آمال:

- الزواج كالطعام المسلوق، صحى لكنه بلا طعم.

قال مصطفى:

- كلما فكرت فى الزواج من فتاة نظرت إلى أمها فارتعبت، فهذا هو الوجه الذى سيواجهنى بعد عشرين عاما.

احتجت أمال قائلة:

- ولماذا لا تنظر إلى أبيها لترى ماذا ستكون أنت.

ـ الحقيقة أننى كلما رأيت زوجين ازداد تصميمى على عدم الزواج.

علق عادل قائلا :

ـ أغلب الظن أنك ستكون أول من يتزوج منا، فموضوع الزواج لا يشكل لمعظمنا أى انشغال الآن، ورفضك له ليس إلا مواجهة لإلحاح داخلى.

قالت آمال :

ـ لو كان الجنس كما نتخيل لما اختلف زوجان.

وتضرج وجه عادل خجلا وهو يقول :

ـ يا جماعة : الزواج مودة ورحمة وأبناء ورفقة فى الحياة، وبعد ذلك كله يأتى دور الجنس.

هل أحبك حقا يا آمال، هل يمكن أن نتزوج يوما وأن أرى للحياة وجها آخر. حجم السخرية والمصارحة بيننا يجعل محاولة الحديث عن الحب تسفر عن ضحك هستيرى.

هل يمكن أن أملك الإرادة لتغيير نفسى؟.

قال عادل :

ـ إنك تظل يوما بطوله مكتئبا من أجل حلم غامض رأيته ثم تتحدث عن الإرادة الإنسانية، تخيل لو أنك كنت إمبراطورا مثلا كم من قرارات هائلة كنت تتخذها تحت وطأة أحاسيس

تجهلها أنت نفسك.

قلت له ساخرا :

ـ أليس ذلك أيضا مكتوبا أم أنه عبث.

أين أنت ؟؟ أحتاجك.

تبدو قادمة من بعيد فكأنها الدنيا بما فيها، الكل غريب إلاك، معك يا آمال لا أشعر بجروحي، يا آمال أنا أحبك، لكنه حب عاجز كحب سناء لي، لأنني يا حبيبتي أشعر بحيرة ميئسة، أنا بلا رغبة، بلا أمل، صنعتني جدتي كي أنتظر أبي، بدون مجيئة أصبح بلا قيمة، وقد أدركت منذ وقت طويل أنه لن يأتي، فعزاني عن ذلك أنني أسير في طريقه، في طريق هو قد سار فيه، الآن أفقد الأثر يا أمال، ففي مثل هذا الوقت كان قد ترك القصر العيني إلى سيناء، تتضاعف غربتي، وأستنكر وجودي حيث لم يكن يوجد.

تقترب، يضئ وجهها وهي ترفع يدها بطريقتها المميزة المحببة لتحيي، من الجانب الآخر يقفز ابراهيم فجأة:

ـ أمن أجل هذا تخلصت مني.

ضحكت آمال قائلة:

ـ ألا يكفيك أن يكون الليل لك.

لوح بيده قائلا :

ـ الليل، أين هو الليل، ٣٢ يوما نوبتجية في الاستقبال لم تنامي في ليلة منها أقل من ٦ ساعات، ستحملين باقي الشهر عني.

ضحكت قائلة :

ـ وهل تزوجت حتى أحمل؟.

قهقة بصورة منفرة، صورة الأحمق ثقيل الدم الذى لا يدرك عن نفسه ذلك ولا يدرك أن الناس تضحك منه لا معه، وأردف قائلا:

ـ عم يوسف كان يسأل اليوم عنك، لك خطاب معه، ألم أقل لك؟.

فجأة انصرف مسرعا فما لبثنا حتى عرفنا السبب، كان مصطفى أبو عوف قادما، وشدما يخشى إبراهيم لسانه.

كلهم يأتون ويذهبون فلماذا لا تظهر يا عادل، كأنك تعرف الأماكن التى أتردد عليها فتتجنبها.

ـ أهلا مصطفى.

ـ كيف حالك يا آمال، وكيف حالك يا محمد.

شر لكننى سأقول خيرا.

ـ لماذا هرب الإنسان منى.

تساءلت آمال :

ـ هل تعنى إبراهيم؟.

ـ ومن غيره.

كنا عائدين مشاة من المسرح القومى إلى القصر العينى فقال مصطفى:

ـ من لم يزن قط، ولم يسكر ويحشش قط، لم يعش قط

قال عادل ضاحكا :

ـ لكم دينكم ولى دين.

فرد مصطفى :

ـ بعد عشرين عاما أكون قد شبعت من الصعلكة وسئمت منها فأتعبد، وتكون أنت قد تعبت من العبادة ويأست منها فتتصعلك فنموت وتدخل النار وأدخل الجنة!!.

ثم نظر نحونا ببسمة اندهاش قائلا:

ـ الدنيا جميلة جدا لكن كليكما يحتاج لعلاج مكثف فى شارع الهرم أو هضبة المقطم، فواحد يهجر الدنيا يأسا والآخر يهجرها أملا ...

ثم قهقه وهو يقول :

ـ علىّ الطلاق ممن سأتزوجها ـ إذا تزوجت ـ لا يوجد فى العالم من هو أحمق منكما ....

ثم استدرك:

ـ إلا جورياتشوف !!.

أنا أتجنب الحديث معك يا مصطفى، أنت ذكى جدا وحساس جدا لكنك كالطفل لا تعرف الفرق بين ما يمكن أن يقال وما يجب كتمانه، ولقد عبرت لعادل مرة عن دهشتى لأنك تفكر فى الموضوعات التى نفكر فيها لكن دون ألم، دون أى عذاب، عادل لديه كل الحلول لكنه معذب، ربما لأنه هو نفسه ذكى بالدرجة الكافية لكى يفهم أن كل نظرياته يمكن أن تنهار فى لحظة، أنا معذب لأننى محاصر، مستقبلى ورائى وعينى فى قفاى، أنت ، ماذا أنت.

قال لى عادل : « لا تظلمه، أنت لا ترى عذابه لأنك لا تراه ».
قال مصطفى :
ـ لماذا تحاول أن تفهم، الوردة لا تحتاج منك أن تكون عالم نبات كى تشم شذاها.
ثم مردفا وهو يضحك :
ـ وإحساسك بالشبق لن ينتظر انتهاءك من دراسة الفسيولوجى.

تركنا مصطفى، أنا وأنتِ واحد يتناقص كلما جمع عليه رقم آخر.
ـ بحثت عنك أمس حتى عرفت ما حدث.
ـ لكنك لا تعرفين المهم.
تطلعت متسائلة :
ـ طلبت من سناء الزواج.
نظرت نحوى بذهول.
عيناك جميلتان، ملء كفيك حنانا يا مليكة قلبى.
ـ الحفلة يوم الجمعة القادم.
ردت باستياء :
ـ أعرف أنك مجنون لكن إلى هذه الدرجة؟.
ـ تطوير بسيط على حفلة عيد ميلادى التى تعده أمى، سأصطحب زوجتى معى وليس لدى مانع عندئذ أن أقيم معها.
قالت مستفزة :

– لماذا تكرس حياتك كلها للانتقام والكراهية. أمك لم تخطئ.
أخرج من ذاتك وعش كخلق الله.
– وهل أعيش الآن كخلق الشيطان ؟!«
– لا أريد أن نتشاجر، سأنصرف.
– مع السلامة.

أنت الأخرى غضبى، أنت الأخرى على صواب وأنا مخطئ.
ثم مستدركا قبل أن تبتعد :
– ما رأيك فى جولة فى وسط المدينة.
– ليس اليوم.
– يعرض فيلم سينمائى يمدحون فيه، يمكن أن أدعوك إليه.
– ليس بعد أن كدرتنى.
ثم محذرة بإصبعها :
– موضوع سناء خطير جدا، إنها ليست علاقة عابرة مع شوشو أو خطابا تكتبه لكوثر، أو أى فعل طائش من الأفعال التى ترتكبها ثم تعود بعدها وكأن شيئا لم يكن، هذا أمر يختلف، ولو كان يتعلق بك وحدك لما تدخلت. إنه نوع من الانتحار.
قلت ساخرا :
– أليس أفضل من الانتحار فعلا.
ردت وهى من الاستفزاز فى غاية :

- بل الانتحار أفضل.

ثم مضت.

مالى أحس بنشوة لاستفزازها، لإغضبها، أضحك كثيرا معك يا آمال وأتحدث كثيرا لكننى أتوق إليك جادة، ليس جادة على وجه التحديد، وإنما رغبت أن تأتى إلىّ يوما قائلة أنك لا تتخيلين الحياة بدونى، اصرخى بين المدرجين أنك تحبيننى، تعالىْ إلىّ فى بيت أبى معلنة أنك ستقيمين معى ولن تتركينى، يا آمال أنا غير قادر على البوح لك بحبى، فالبوح فى مثل حالى خيانة، أنا كجندىّ مكلف بمهمة معينة لو تجاوز حدودها خان، لكنه بالرغم من ذلك ليس على يقين كامل بصواب رأيه، فيتمنى أن يأتى من يقسره على ترك مهمته، أنا كالغريق يا آمال لا أستطيع أن آتى طوعا وإنما احتاج أن تنتشلينى.

وأنا أدلف إلى بيت أبى غشى الحزن قلبى، لماذا أغضبتها، ثم لماذا استمتعت بإغضابها، هكذا فعلت مع عادل أيضا، عندما أموت ويدخلنى الله نار جهنم سأقول له قد جربتها يارب فى الدنيا داخل قلبى ولى بها طويل ألفة.

أعد طعام الغذاء.

صرخت فيها لا، ليس هنا فنظرت إلىّ بدهشة هامسة لا تغضب وحاولت فى الغرفة الأخرى فخذلتنى رجولتى، كانت

مستاءة فقامت وسط المحاولة لتغلق شباكا لأنها تحس بردا، فكيف كان يمكننى ان أفسر لها أن الغرفة الأخرى غرفة نوم أبى الذى لن يأتى لكنه لا يوجد فى الدنيا ما أثق فى علاقته الوثيقة به سوى هذا السرير. أواصل المحاولة بيأس لا يوصف حتى تنقذنى طرقات على الباب، أفتح فإذا به عادل.

- ....

- ....

- علمت أيضا أنك تتعاطى حبوب الهلوسة ....

- ....

- أنت تضعنى فى خيار صعب، لأننى لا أستطيع أن أتركك هكذا، أنت تدمر نفسك، وأنت غير مدرك لهذا، ولا أتوقع أن تستجيب لى، كما أعرف ظروفك الأسرية ولا أتخيل أن أدخل خالك أو أمك فى الأمر.

صحت فيه:

- طظ.

- ألا يردعك رادع، ليتنى ما صادقتك، اذن لما اعتبرت نفسى مسئولا عنك.

رسمت ابتسامة على شفتى:

- أنت لم تكن أبدا صديقى.

- ماذا كانت علاقتنا اذن؟

ـ فضولى للتحدث الى خروف.

صرخت :

ـ شوشو تعالى هنا.

حافية جاءت بعد تمنع حسمه اصرارى تلبس بيجامتى يترجرج فيها صدرها وعجيزتها ويكمل شعرها المنكوش صورة فاجرة وحشية.

ـ ماذا تريد.

ـ لا تقفى عندك، اجلسى معى على هذا الكرسى.

ـ لا يكفينا.

ـ سنتداخل فيكفينا.

جذبتها فوقعت على حجرى. قبلتها بوحشية مغتصب، ومددت يدى لتعبث فى أنوثتها.

ـ أنا كونت علاقة مع هذا الخروف فهل تستطيعين أنت.

تملصت منى غاضبة ودلفت الى الحجرة بينما كان يهب واقفا فى انفعال :

ـ لقد تجاوزت كل حد. لست مريضا الا اذا كان الانحراف والاجرام مرضا.

ـ اذهب الى الجحيم الذى تؤمن به.

ـ سأعرف كيف أجعلك تندم.

ويده على الباب يفتحه رمقنى بنظرة نارية :

ـ سترى.

فى لا وقت كانت بصقة ضخمة على وجهه.

أعددت نفسى للشجار اذ أيقنت أنه سيضربنى، على الأقل سيرد البصقة. لكن ما أدهشنى، ما أغضبنى حتى الجنون أن كل ملامح التوتر فيه تلاشت، كأنها قبلة لا بصقة، علت وجهه ابتسامة جذلة، لقد ألقيت عليه قنبلة لكنها لم تنفجر. لا، بل كأنه سعى بنفسه اليها، كما لو كان قد تمناها، وحصل عليها، وهو يواجهنى، خارج الباب النصف مغلق، ازداد طولا وعرضا، وبدا كتمثال فرعونى ضخم بملامح حجرية تبتسم، وصوت فى غاية الرقة يخرج منه :

ـ شكرا يا محمد فهمى عبد الله، يا صديقى العزيز.

صرخت فيها:

ـ هات الزجاجة يا شوشو.

كانت غاضبة وهى تهتف :

ـ كيف تفعل بى ذلك أمام صاحبك.

ـ ليس صاحبى وإنما ابن كلب لم يمت أبوه.

ـ هل ستشرب فعلا.

ـ نعم، سأشربها كلها إذا أردت.

وراحت تحضر كأسا، انفجرت ضاحكة وهى تعرض علىّ أن أشرب معها قبل ذلك فأرفض، ونحن عاريان همست ساخرة:

ألأنـها حرام. ربما يا شوشو، ربما، نـحن خبراء فى ستر ما بأنفسنا، زادت خبرتنا حتى غمى علينا مانستره بأنفسنا، وجدتى قد تغفر لى أن أزنى لكنها لو عرفت أننى أشرب الخمر لتبرات منى. رحت أنتظر نشوة الخمر لكنها لم تأت، بقيت فى فمى مرارتها، أين النشوة يا شوشو، ليس بهذه السرعة، انتظر، هيا نرقص يا شوشو، لكنك لا تعرف، علمينى، تدير المسجل على أغنية حديثة، لا أفهم هذه الأغانى يا شوشو، هات شيئا لأم كلثوم أو حليم أو فريد فتضحك منى : لكن أغانيهم لا تصلح للرقص، من قال هذا يا شوشو، من حدده، أم أن السكر والرقص والأغانى أيضا تخضع لمنطق، هى الآخرى لها معنى، لماذا تبتعدين عنى، هذه مصارعة حرة وليست رقصا، ليست هذا ولا ذاك يا شوشو وإنما يفعلون ذلك فى موالد قريتى، تنهد قواى فأجلس وانفجر فى الضحك فتتساءل علام تضحك فأحكى لها عن منظر عادل وأنا أبصق فى وجهه وتسألنى لماذا؟ لن أخفى عنك يا شوشو، جاء يخبرنى أننى مجنون وأنه اتفق مع أحد أساتذة الكلية أن يعالجنى، ابنة الداعرة تطلب منى أن أطيعه فأقفز على النافذة صارخا مادمت مجنونا فكل شئ مباح.

ساعة الردهة تدق الخامسة، ست عشرة ساعة أنفرد فيها بنفسى، ستة

عشر عذاب وستة عشر مليون فكرة وذكرى، آه ما أشد ما تؤلمنى رأسى، أتناول قرصا من النوفالجين، أتذكر الفينوباريتال، لا أريد إدمانه ولم أقرب الخمر سوى تلك المرة الوحيدة، لم أتعاط حبوب الهلوسة أيضا يا عادل لكننى ادعيت ذلك مرة أمام مصطفى كى أكسر حدة سخريته منى. ست عشرة ساعة حتى صباح الغد، خمسة أقراص من الفينوباربيتال قد تعيننى كى أقهر الزمن، تلقانى أمى فى المقاهى، بينى وبينك جبل جليد يا أمى، كل شئ ولا شئ سواء، مليون كلمة تختنق فى صدرى تخنقه خروج كلمة منها كدخول جمل من سمِّ خياط، مابك يا محمد، علتى أنت يا أمى، هل أستطيع أن أواجهك، أن أحرقك حرقًا كى أطهرك وأصطفيك، لماذا لا تتكلم يا محمد، عندى صداع يا أمى، تبادرين بإخراج النوفالجين من حقيبتك مصرة على أن أتناوله أمامك وليس رأسى هو الذى يؤلمنى يا أمى بل قلبى وروحى فهل لديك لذلك دواء.

رأسى يدور فتخف همومى، أشعر بشماتة فى غول النوم. الآن أقهرك وأسيطر عليك، أصطحب كتابا إلى فراشى، تتراقص الحروف أمام عينىّ، أحاول اقتناص لحظة انهيار وعيى، لحظة تراجعه واكتساحه، لحظة هزيمته، ذلك الجبار القاسى الذى لم يكف عن الطنين وعن الدوى وعن التأجج.

بين المدرجين لم أجده، ولا المدرجين أيضا ولا المكان كله

وإنما حفرة هائلة وحفارات عملاقة تغرس أنيابها الضخمة تخرج أحشاء الأرض فصرخت وجريت إلى المهندس أسأله عن الشاهد الرخامى الذى كان هنا فيقول نقلناه، ويرتبك حين أسأله نقلتموه أين فأشك فيه وأندفع نحو الحفرة لأجد الشاهد محطما فى قاعها والماء يغرقه رويدا رويدا، فأصرخ أوقفوا الماء فيوقفوه فينبثق الدم، ويصرخ فىّ صوت ارجع وإلا سقطت، لكننى لا أرجع فلا أسقط إنما أكتشفت طريقا قصيرا جدا من الحفرة إلى بيت جدتى، فأروح من الذهول فى غاية، وتقابلنى جدتى بكامل عافيتها قائلة: أنا أعرف أنك وجدته لكنك تخفى الأمر عنى، أتريد أن تفاجئنى به ياحبيبى فأقول لها والله لم أجده فتفتح الدولاب متسائلة إذن أين حلة زفافه، فأهرب منها وتطاردنى فأتسلق شجرة الجميز، فينكسر الغصن، فتصرخ جدتى صرخة هلثلة أبوك مات فأجرى، أبحث عن الطريق المختصر إلى ما بين المدرجين فلا أجده، وأرى زحاما أتجه إليه فأجدنى فى وكالة البلح فأندهش كيف وصلت إلى هنا، لكننى نسيت دهشتى أمام صياح الباعة، ووجدت رجلا يرتدى حلة أبى فصرخت فيه أنت سرقتها فرد فى برود بل كانت معروضة للبيع فاشتريتها فأخذت أحاول إمساكه وهو يضحك لأننى كنت ظلا بلا جسد.

صحوت فقفزت من السرير قبل أن يمسك الحلم بتلابيبى مرة أخرى وكان الصداع فظيعا ولبثت فترة أتذكر فى آى يوم نحن، النور ساطع، وأنا نمت قبيل المغرب، فهل استيقظت أم ما زلت أحلم، وهببت واقفا عندما أدركت أننا ظهر الأربعاء وأننى لم أذهب إلى عملى.

يالها من خيبة ألا يشعر بغيابك حين تغيب أحد، راوية تبكى محاطة ببعض زميلاتها، أسأل عن رئيسة هيئة التمريض:

– من ستمر معى على المرضى؟.

– لقد مررت فى الصباح، هل ستمر مرة أخرى؟.

تداركت قائلا:

– إذا كان أحد المرضى يحتاج شيئا.

– جميعهم بخير، لو احتجنا إلى شئ فسوف نطلب النوبتجى.

– أنا النوبتجى، سأكون فى السكن.

ثم متسائلا وأنا أنصرف:

– هل سألت إحداكن عن أمين؟.

قالت وهى تجلس:

– ألا تعرف، لقد مات بالأمس، بعد الجراحة مباشرة مات.

لو أن سناء موجودة لبكته نيابة عن قلبى، ليت له أما كأمى لا تحس بموته، فيم كان انتحاره يوم السبت إذن وفيم كان

المجهود المضنى فى إنقاذه، أيسخر منى القدر، أيهزأ بى، آمال سألتنى يومها ضاحكة إذا كانت الحياة لا تستحق أن تعاش كما تقول فلماذا هذا الجهد كله وهذا العناء كله فى محاربة الموت.لا أعرف يا آمال. لا أعرف أيضا لو لم يمت أبى شهيدا يوم ٥ يونيو هل كان سيسقط فى نفس اليوم فى بالوعة مجارى وسط القاهرة، أم تسحقه شاحنة ضخمة، لم أعد أعرف هل أنا على صواب أم عادل على صواب أم جدتى أم أمى أم زوج أمى أم أنت يا آمال أم كوثر أم حتى إبراهيم أبو شنب، لم أعد أعرف سوى أن طرقاتكم مستوية وواضحة محددة المعالم، أما طرقاتى فضبابية فى مدينة مسحورة، ملعونة أيضا، تحولت كلمات الأخرين عندى إلى مفاتيح تفتح كل كلمة منها جبا مظلما من الماضى فأسقط فيه تلدغنى عقاربه السامة وحياته، وأفلت منه لأسمع كلمة أخرى تسقطنى فى جب آخر.

ـ أهلا يا محمد.

ـ أهلا يا آمال.

ـ What is wrong.?

ـ What is wright.?

قطبت وجهها وزمت شفتيها فى طريقة محببة قائلة :

ـ إلى هذه الدرجة.

ثم مردفة بسخرية:

ـ ليس هذا منظر عريس سيُزف بعد غد.

ـ أى عريس وأى عرس؟.

كنت قد نسيت تماما ما قلته لها فنظرت إلىّ بدهشة:

ـ ألن تتزوج سناء بعد غد.

آه ما أشد الصداع. تذكرت.

ـ لم أقل ذلك يا آمال، قلت أننى طلبت من سناء الزواج وأن الحفل يوم الجمعة، لكننى لم أقل لك أنها وافقت ولا أن حفل الجمعة حفل زفاف.

كست ملامح الحيرة وجهها ثم أطلقت ضحكة صاخبة:

ـ كنت تثير غيرتى إذن، لكنك تعرف أننا لن نتزوج فلماذا.

ـ أمين مات يا آمال.

ـ أمين ؟ أمين من؟.

ـ ذلك الطفل الذى حاول الانتحار ....

ـ نعم، نعم تذكرته .ثم أغرقت فى الضحك وهى تقول:

ـ سمعت اليوم أظرف تعليق يمكن للإنسان أن يسمعه.

ـ لهذه الدرجة.

ـ تخيل ماذا يمكن أن تكون الكلمات الأخيرة لإنسان قبل الموت.

وتضحكين يا آمال.

ـ ماذا حدث؟.

– جاءنا اليوم مريض بالاستقبال متسمما بسم الفئران، عجبت عندما علمت أنها حالة انتحار فقد كان شابا فى العشرين ذا لحية تصل إلى منتصف صدره، أجرينا له الإسعافات الأولية لكننا لم نستطيع تحويله إلى قسم السموم قبل أن يسترد نبضه، تركت إبراهيم يواصل إسعافه حين لم أستطع التغلب على فضولى لمعرفة سبب انتحاره.

أشارت إلى نفسها فى فخر وهى تواصل :

– لا يوجد مثلى من يستطيع الحصول على الحقيقة من جذورها. بطريقتى الخاصة عرفت أنه ترك الدراسة منذ ثلاثة أعوام بعد أن انضم لإحدى الجماعات الدينية وواجه أهله بأنهم كفار، بذلوا المستحيل معه وأخيرا عاد للإقامة معهم بشرط أن يعتزلهم، واستيقظت الأسرة على صراخ زوجة شقيقه المسافر وهو يحاول أن يغتصبها، هرع إلى المطبخ وتناول سم فئران كان قد اشتراه فى نفس اليوم بجنيه لمقاومة فأر فى حجرته. نادانى إبراهيم سعيدا بأنه استطاع أن يعيده إلى وعيه، كان يتأوه ثم حملق فينا كما لو كان ينظر إلينا من عالم آخر ثم غمغم: «يارب كل حاجة فى الدنيا تغلو إلا سم الفئران، أعطيت الصيدلى جنيها فأعطانى نصف كيلو سم».

وما أن قال ذلك حتى سقط رأسه على صدره ومات.

وتسقطين رأسك على صدرك يا آمال ممثلة سقوط رأسه على صدره. أهكذا تتعاملين مع الموت؟.

– هل رأيت راوية اليوم.

– تركتها فى القسم منذ قليل تبكى، لعلها تبكى أمين.

ضحكت قائلة :

– راوية تبكى أمين، توقعاتك دئما خطأ، لم تصلك إذن آخر الأخبار.؟

– أية أخبار؟.

– هل تذكر قصة عم حسنين؟.

– من هو عم حسنين؟.

– ذلك الرجل الذى مثل دور والد راوية مع إبراهيم أبو شنب.

– أجل، ذكرته، ماذا به؟، وما علاقة ذلك براوية؟.

– وراوية هنا مساء الإثنين ذهب إلى أبيها وخطبها منه ووافق الأب، فوجئت راوية صباح الأمس ورفضت وبكت وهددت بالانتحار لكنه ذهب فى المساء محملا بالهدايا وهى لا تكف عن البكاء. سوف آتى فى القسم عندكم الليلة كى نحاول إنقاذها من هذه المصيبة، فعلى وجه من الوجوه أنا مسئولة.

– لكن متى عرفت كل هذا؟.

– طلبتك فى الصباح فلم يرد أحد فذهبت أسأل عنك.

– أين تذهبين الآن؟.

– أقنعت إبراهيم أننى سأتناول الغداء وأعود إليه فورا لكننى لن أعود قبل الثامنة. أجلس معه ساعة أو ساعتين ثم أحّضر إليك فى القسم.

صدقتنى يا عادل عندما قلت أننى لا أومن فاندفعت قائلا:

– هل رأيت الكهرباء قط، هل رأيت تيار الإليكترنيات السيار

بعينك أو بأية آلة أخرى، الإجابة لا، ومع ذلك فيالك من أحمق إن أنكرت وجودها، لأن دلائل وجودها مبثوثة فى كل ما حولك، ووجودها لا ينتظر اعترافك بها، هو لا يهم أحدا إلا أنت، ومع ذلك كله حاول التثبت من وجودها بنفسك، هيا أمسك هذا القلم المعدنى وضعه فى فتحة الكهرباء التى أمامك، عندئذ تكون لحظة المعرفة هى لحظة التلاشى، ولن تكون موجودا كى تعرف أنك عرفت.

لماذا لم تضرب لى المثل بالألم ؟.

ـ الغداء يا عم يوسف

ـ مساء الخير يا باشا، لحظة واحدة آتى الغداء، عم يوسف غاب اليوم.

ـ مساء الخير يا نصحى.

ـ عم يوسف ترك لسيادتك هذا الخطاب.

الخط الدقيق الجميل خط كوثر، كذلك العطر الذى يفوح عطرها. أضع الخطاب فى جيب المعطف كى أقرأه فيما بعد.

مصدودة نفسى عن الطعام وعن الخطاب.

أتمدد فى سريرى. يغشانى الفتور والسأم، لاشئ فى الدنيا يستحق أن أمد يدى إلى جيبى فأمسك بالخطاب لأفتحه على مهل حريصا ألا تتمزق الورقة الداخلية مع الغلاف، ثم أفتح الورقة وأقرأ، لماذا كل هذا؟. أم أن الصدفة التى عرّفتنى بكوثر هى الأخرى لها معنى، وقد أتزوجها فتتمخض الصدفة عن إنجاب طفل يكون عندما يكبر شهيدا، أو مصلحا يهدى العالم أو

جبارا يغنيه. كانت إحدى المجلات الأسبوعية تجرى استفتاء للرأى حول حرب الخليج فقلت رأيى دون خوف وأدنت الجميع، بعد أسبوع من النشر جاءنى خطابها الأول معبرة عن إعجابها برأيى ورغبتها أن نتراسل فتراسلنا.

لو أننى أعرف ما ستسفر الأمور عنه، ما سيحدث غدا وبعد عام وبعد ألف عام أم أن أنصرف عن هذا كله لأركب قطارا يتحرك للوراء. أجل، أريد قطارا يتحرك للخلف، أريد أن أمسك مامضى، أن أقهر الزمن، أنت لم تفهم قصدى يا عادل حين سألتك عن دوران الأرض، إن أبسط البديهيات وأوضحها يكتنفها غموض هائل، لو اختلف اتجاه دوران الأرض لانقلب كل شئ، أما لماذا تدور فى هذا الاتجاه دون ذاك فمن يفتى؟ من؟ نسيت أن أكمل لك محنة آدم، هل تعرف ماذا أتمنى؟ أن تعكس الحركة اتجاهها! أن يصغر الكبار حتى يعودوا صغارا، ثم يصغروا حتى يعودوا الى أرحام أمهاتهم!! يالها من نشوة يا عادل، تخيل أن ذلك يحدث، أن الحبل السرى الذى لم يزل ينزف منذ انقطع يلتئم مرة أخرى، نعود الى حنان الرحم ودفئه، نهرب اليه من وحشية هذا العالم، لكن الأمر لا يتوقف، إذ تصغر الأمهات حتى تعود الأمهات الى أرحام الجدات حتى نصل الى قابيل وهابيل فيعودا هما الآخرين الى رحم حواء، وحتى حواء تعود

إلى ضلع آدم فيعود الى الله تائبا نادما هاتفا جرّبت كل شئ ففشلت فى كل شئ، لم أمسك الا سرابا ولم أحقق الا وهما فلمنى أنا المبحثر وجدنى أنا الضائع وأسعدنى أنا الشقى، كذا مليون عام أشقى فأرحنى وإلا بحق جلالك كان العدم أرحب لى. لو كنت هو - وربما كنت - لقلت له خلقتنى وطرحتنى فتعذبت بهجرك، خلقت لى ماطلبت وحتى مالم أطلب، وكأنك قلت لى اذهب بمعصيتك، عش ما شئت فإنك ميت، وعاشر من شئت فإنك مفارق، كل ما شئت فليس لك فى النهاية سوى معى واحد، وضاجع من شئت لكن بعد كل فورة نشوة وبعد كل نشوة قذى، إبن ما شئت فلن تشغل أكثر من مساحة جسدك، اكتب ما شئت وامرح ما شئت واغتن وافتقر وتعلم واجهل وارتق واسفل، شرق وغرب وبحر وقبل واترك كوكبك الذى نفيتك فيه الى كواكب أخرى، طر وغص، افعل، افعل كل ما يخطر على بالك أو يطوف بخيالك، افعل أيضا مالم يرد ببال ومالم يطف بخيال، افعل ، افعل، افعل، لكن الكل قبض الريح والكل هالك.

وجدتنى أحوّم فى الفضاء فوق القصر العينى فأقول لنفسى هذه الطريقة أسهل كثيرا من المشى فى الردهات الطويلة، وحططت عى قسم الأمراض العصبية فوجدت المقعد ذا

العجلات يتحرك وظهره لى فناديت فى دهشة هل عدت يا سناء، فاستدارت فإذا بها آمال فسألتها فى فزع ماذا جرى لك يآمال فقالت أنا لست أنا، أنا كوثر، فدهشت دهشة عظيمة فناديت بأعلى صوتى على راوية: أحضرى تذكرة هذه المريضة، أخذت أرى وجهها فإذا بملامحه تتغير وزينب بجوارى تهمس إنها أمك، فأصرخ منتشيا: هل رأيت كيف عاقبك الله بذنبى، فما أن قلت ذلك حتى وجدتها جدتى وليست أمى فصرخت مرة أخرى يا راوية، وزعقت راوية: تعال أنت، أنا فى مكتب رئيس القسم فذهبت إليها، فقالت سوف أشرح لك الأمر كله واستدارت فإذا بها جارتى، فعانقتنى وأخذنا نمارس الحب، وهى تموء وأنا أصرخ من فرط النشوة وإذا بقهقهة فقلت لنفسى لابد أنه رئيس القسم لكننى وجدته إبراهيم أبو شنب يقول :

ـ وجدتك تحتلم فلم أقطع عليك شهوتك.

فقفزت جالسا على السرير وأنا من الخجل فى غاية قائلا لنفسى علّه لا يفاجئنى هو الآخر بأنه عادل بلال.

ـ كم الساعة الآن.

ـ الثامنة.

ثم أردف ضاحكا :

ـ من كانت.؟

فتجاهلت سؤاله.

فواصل معابثا :

– ليتك لا تنزل إلى القسم الآن، فلو نزلت ستتركنى آمال.

ليتنى كنت مثل إبراهيم أبو شنب أو عادل بلال أو مصطفى أبو عوف، أوحتى مثل زوج أمى.

ثلاث ساعات أمر على المرضى، تعبت راوية فتركت معى مساعدة ممرضة كى تكمل المرور، أراجع بنفسى ملاحظات كل مريض، الضغط والنبض والحرارة والغيار على جروح المجروحين وقرح المقروحين وسؤالهم عن الدواء الذى يتناولونه. كلما وجدت بابا لقتل مزيد من الوقت ولجت فيه، الزمن غول إن لم ألتهمه التهمنى، أم فتحى تدعو لى مقسمة أنها لم تر طبيبا ذا ضمير مثلى، أم فتحى تكذب، تنافق، وأنا لا أملك لها ضرا ولا نفعا، أنا أيضا أكذب ولو وجدت طريقة أخرى للقضاء على الوقت ما ترددت.

أعود إلى المكتب لأجد راوية باكية مرة أخرى وآمال معها تفكر كيف تخلصها من ورطتها.

– لن يتنازل أبى عن هذا الزواج إلا إذا رأى معى عقد عمل للسعودية أو الخليج، سبعة أبناء، كيف يربيهم، وكيف يزوج خمس بنات أنا أولهم إذا وضع أى شرط لأى متقدم، لكن مأذنبى أنا.

قالت آمال :

– لو ضغط أبى عليه لترك العمل وما تنازل عنك.

ثم ضاحكة :

ـ ماذا نفعل فى جاذبيتك الجنسية، لو كنت مكانه لفعلت نفس الشئ.

نظرت إلى عينيها الدعجاوتين الدامعتين فاشتهيتها.

ـ المصيبة أننى أهددهم بالانتحار لكنى أعرف أننى عاجزة عن أى شئ. وقد أجد نفسى بعد شهر الزوجة الثالثة لهذا العتل.

آمال معابثة :

ـ لا تنكرى بعض ميزاته ياراوية.

صرخت راوية :

ـ مميزات، هل يوجد أى ميزات لهذا العجل؟.

آمال وهى تغمز لى بعينها :

ـ إنه لن يقدر على إشباع كل حاجاتك، لكنه سيشبع ناحية معينة باقتدار.

راوية تبتسم بعينين مغرورقتين :

ـ لماذا أعذب نفسى، كل واحد يفعل ما يريد، أنا الأخرى سافعل ما أريد، يريدون أن أتزوجه، سأتزوجه، لكننى سأخونه مع طوب الأرض.

قالت آمال متصنعة الجد وكأنها تهتف :

ـ إما الإعارة أو الدعارة.

ثم لى :

ـ ما رأيك يا محمد.

قلت باسما :

ـ الرجل حى والمرأة حية، والرجل مصيب والمرأة مصيبة، فاتركى راوية تدبر أمرها، فلا يوجد فى الدنيا رجل يغلب امرأة.

هل طُرِدَ آدم من الجنة حقا بسبب حواء، وهل شجرة التفاح رمزللجنس، ويقف الشيطان يقهقة كزوج أمى وإبراهيم أبو شنب :

اذهب، اذهب معها، مارس ما تركت الجنة بسببه، لن تكف عنه ولن تشبع منه ولن يرويك، سيظل يشغلك طول عمرك، تدور حوله، تسعى اليه، كل الطرق تؤدى اليه، فبوؤا بلعنتى وضلالى، سأبذر فيكم الجوع، حتى لا يشبع امرأة ذكور العالم ولا رجلا نساؤه.

راوية ترد على آمال فى حديث لم أنتبه لبدايته :

ـ هذه فكرة جيدة.

قلت :

ـ فى بلدتنا حدثت قصة مشابهة، كانت بطلتها ممرضة أيضا، جميلة مثلك ياراوية.

آمال :

ـ ستغضب راوية الآن منك، فلا يوجد فى جمالها أحد.

أكمل حديثى :

ـ أُرغمت على الزواج فمنعت الحمل، وتحينت الفرص حتى حصلت لنفسها ولزوجها على عقد عمل فى بلد عربى كممرضة خاصة فى بيت أمير.

- لزوجها أيضا، بدلا من أن تهرب منه.

- انتظرى حتى تعرفى باقى الحكاية، لم تكن بالطبع تستطيع الخلاص منه فى مصر، هناك غزلت شباكها حول الأمير الصغير، والزوج المسكين....

راوية باحتجاج :

- مسكين ....

- ..... يشعر بكل شئ لكنه غير قادر على التصرف خاصة بعد زوال حرص العاشقين، وقيام الأمير بتأثيث جناح فاخر نقلهما إليه، لم يحرصا حتى على ممارسة العشق على فراش غير فراشه، وأخيرا هداه تفكيره بمشورة الأصحاب أن يدس جهاز إرسال صغير بين طيات الفراش، وانتظر بمسجله بالجوار، وما أن دخل الأمير الصغير حتى شرع فى تسجيل لقاء جنسى كامل، وهرع إلى الشرطة بغنيمته، لكنه فى اليوم التالى فوجئ بهم يقبضون عليه بتهمة سرقة ثابتة بالأدلة، شخص لا يعرفه، لكنه أدرك بعد ذلك أنه من أتباع الأمير، دبر له الجريمة كاملة، طالب الشرطة بمحضر الأمس وشريط التسجيل لكن كل شئ كان قد اختفى، واتهمه الأمير الصغير بالقذف فى حقه.

كانت أمال وراوية مشدوهتان تماما، وقالت آمال:

- حكاياتك مأساوية دائما، إياك أن تنهى الحكاية بقطع يده.

احتجت راوية ضاحكة:

- يده فقط.

وواصلت :

- فى السجن، بعد شهور وشهور انتهت مقاومته فيها تماما ساوموه على أن يطلق زوجته مقابل ترحيله، فوافق، لكنهم أقاموا عليه حد السرقة فقطعوا يده، وحد القذف فجلدوه، ثم طردوه.

علقت آمال محتجة:

- هذه حكاية جديرة بمسلسلات التليفزيون، خاصة إذا أنهيتها بأنه كان احد المرحلين على الباخرة سالم اكسبريس فغرق معها.

لكن إحساسا كالشبق كان ينتاب راوية وهى تقول :

- وهى، هل تزوجها الأمير.

- بالطبع لا، ولم تكن التقاليد هناك تسمح بأن تبقى، ورغم مجهودات الأمير صدر قرار بترحيلها، يبدو أنها توسلت إليه بأن مطلقها سوف يقتلها لو عادت إلى مصر، فاشترى لها بيتا فى لندن، وهناك اقامت عدة سنوات ثم عادت إلى مصر، تملك الآن بوتيك فاخر فى المهندسين، وفيلا على النيل فى المعادى لاتكاد تفرغ من الحفلات الصاخبة، فالبوتيك ليس إلا ستارا لعملها الحقيقى.

بدت ملامح النشوة والانتقام على راوية وهى تهتف :

- والله لو استطعت أن أفعل فى حسنين الكلب مثل ذلك لفعلت.

تساءلت آمال :

- وماذا فعل زوجها القديم بعد ذلك، لماذا لم ينتقم لنفسه بعد عودتها؟.

- مكث فى القرية سنوات يندب وينوح ويحكى ويستكتبنا الشكاوى للرئيس والنائب العام والصحف، لم ييأس حتى علم أنها عادت فقرر الانتقام، لم يجد ثمن مسدس فتسول ثمن خنجر، كانت القرية كلها تعلم

نيته، وتدريبه الشاق حتى يجيدِ استعماله بيده اليسرى، وكان يوم سفره إلى القاهرة يوما مشهودا، وانقطعت أخباره عنا إلا من شاهد من قرية مجاورة، كان مسافرا فى نفس القطار، ورآهم يقبضون عليه فور وصوله باب الحديد.

شهقت راوية فى نشوة وقالت آمال فى انزعاج:

ـ هذه رواية ولست واقعا، لا يمكن أن يكون الأمر بهذه البشاعة.

كل اللاممكنات تحدث يا آمال، أما بشاعة الأمور فهى أشد.

واصلت :

ـ لكنك تستطيعين رؤيته الآن إذا شئت.

هتفت :

ـ أين.

ـ حارسا لبوابة فيلا مطلقته.

صفقت راوية بيديها طربا هاتفة:

ـ الله عليك يا عم حسنين وأنت بواب فى قصرى.

قالت آمال :

ـ على العموم، لو سألت شخصين فى الخارج الآن عمّا يحدث فى هذه الحجرة لخرجت بأربعة حكايات مؤكدة وعشر مروية ومائة ظن، ولو انتظرت حتى الغد وسألت يمكنك ضرب الأرقام فى نفسها.

أين الحقيقة إذن، مامن حقيقة، مامن حقيقة، مامن حقيقة.

تساءلت فجأة بإحساس بالذنب :

ـ نسينا زينب؟، لماذا لم تحضر؟ لعلها تحتاج لمن يقودها إلينا.

ردت راوية:

ـ قالت أنها تشعر بالخجل منك.

ـ منى أنا؟ لماذا.

ـ بالأمس توسلت إلى كل من فى القسم كى تسحب إقرارها بالخروج، ولولا وساطتى اليوم ما وافق النائب.

نظرت آمال إلى ساعتها وهى تنهض:

ـ الواحدة صباحا، بالكاد أمر على إبراهيم ثم أصعد لأنام.

جلجلت ضحكتها الذهبية فى الرواق وهى تقول:

ـ كيف حال معشوقتك الفكرية؟.

ـ كوثر؟.

ـ وهل يوجد سواها؟.

ـ بالطبع يوجد؟.

ـ من؟.

ـ سيمون دى بوفوار وسناء محيدلى وأنت.

ـ أغلب الظن أننى سأكون عشيقتك عمليا لا نظريا، لكن بعد أن أتزوج زوجا ثريا أحمقا أستمتع بخيانته، كلما راقبت الشحناء بين الأزواج أدركت أن العلاقة بسبب الغريزة فقط حماقة.

- لماذا لا نبدأ الآن فى دفع عربون هذه العلاقة.

لحظتنى بعينيها، كما لو كانت تعيد تقييمى، هل أستحق؟ بدا فى ملامحها شئ غامض حرت فى فهمه، هل هو عتاب أم غضب أم حب أم رغبة أم حيرة. كنا نمر مقابل طريق جانبى مظلم يؤدى إلى فناء المستشفى فدفعتها إليه وهى تهمس «إعقل» حوطتها بذراعى ولثمت وجهها بسرعة خاطفة وبدت منها محاولات غير جادة للتملص وهى تواصل الهمس «كفى كفى » لكننى عثرت أخيرا على شفتيها فغبنا معا فى قبلة طويلة، تملصت بعدها بحزم منى.

ونحن نواصل السير بدا وجهها متوهجا بالحمرة والسعادة، وبدت لى قريبة شهية دانية حبيبة.

ترى هل تقبلنى لو تقدمت للزواج منها حقا، بل هل أستطيع أنا أن أكسر جمود نفسى فأتقدم لها.

بدت سعادتها غريبة علىّ وسعادتى أغرب، أكان كل إعراضها قبل ذلك سترا لرغبة.

فى بيت زوج أمى، عندما كانت أمى تعد أصنافا من الطعام والحلويات لا أعرف كيف تؤكل كنت أدعىّ أننى لا أحبها، « أشبعتنى جدتى منها حتى كرهتها»، وهم يعلمون أننى أكذب، وأنا أعلم أنهم يعلمون وهم يعلمون أننى أعلم. وكنت أشعر أن الهواء مسموم وأننى أختنق.

- سنجلس مع إبراهيم خمس دقائق ثم ننصرف.

- إبراهيم .. لا.

أردفت فى شقاوة :

- المصباح أمام بيت الطبيبات مطفأ، وقد أوافق على قبلة بريئة.

ضحكت وأنا أضغط ذراعها فتنفر هاتفة: « الناس، هل جننت ».

- إذن سأنتظرك هنا.

ثم معقبا :

- هل من الضرورى أن تمرى عليه، سيقوم بالعمل وحده على أى حال.

نظرت إلىّ بدهشة من غاب عنها مثل هذا الحل رغم بساطته.

- معك حق، سأطلبه فى التليفون من السكن كى أعده أننى سأكون عنده فى الفجر.

ونحن متوجهان إلى بيت الطبيبات خيمت على نشوتى غشاوة، لو استسلمت، لو أحسست بالسعادة فقد كنت مريضا إذن كما يقول عادل، مريضا كنت وربما مازلت أحتاج للعلاج الذى رفضته، ولو لم أحس بشئ فأنا مريض أيضا، فذلك ينبو عن الطبيعة البشرية، لكن، مالى ومال البشر، أنا آخر سلالة من جيل انقرض، دال. اختلط بوقع خطواتنا على الأسفلت صرير عجلات ترولى متهالك أغلب الظن أنه يحمل متوفيا إلى المشرحة، حاولت أن أنفض ذلك كله ممنيا النفس بقبلة وشيكة، قبيل باب بيت الطبيبات قالت آمال :

- أنا قلت لك قد، وقد تعنى الشك.

وقبل أن تكمل الجملة كانت قد هربت منى فى رشاقة غزال شارد.

- تصبح على خير.

- وأنت من أهل الخير.

يا حبيبة قلبى، يانسمة الريح الندية فى لظى الهجير، ياعزاء ياارواء، يابديلة عادل وكوثر، ياشمعة وحيدة فى ليل بهيم حالك، لكن كيف أعبر بحر شقائى المتلاطم كى أصل إليك. أنا الآخر يا آمال، لن يأتى بعدى من يبحث عما أبحث عنه أو يفكر فيما أفكر فيه.

البيت الآخر لأطباء الامتياز بعد بيت الطبيبات، وهناك عادل، هل أصعد إليه، أتسول صداقته وروحه.

كان عادل مستفزا مستثارا، لشدما أحبه وهو كذلك، عندما يكون عاديا، فإنه يشبه آله معطوبة، تليفزيونا لا ينطق ساعة لا تدق موتورا لا يعمل او قلبا لا ينبض، أما عندما يتوهج هكذا فما أقربه إلى قلبى، ما أمتع أن يكون ذلك تلقائيا بانفعال مشترك، لكننى عندما افتقده اصطنعه باستثارته، كما فعلت ذلك اليوم، نهض وهو من الانفعال فى غاية:

- هل عندك كتاب .LAST ANATOMY فى التشريح

- عندى طبعة قديمة منه.

«كتاب أبى»

- لم ينتظر قيامى، اندفع نحو الكتب فقلبها بعينيه ويديه حتى

وجده فعاد به صائحا :

ـ سوف ألخص لك هذا الجزء قبل أن تتكلم فيما لا تعرف:

الجيوب الأنفية: وظائفها غيرمعروفة تماما، من الواضح أنها بتجاويفها تجعل عظام الجمجمة والوجه أخف وزنا، لكن نظارة وغليونا تعادل هذا التخفيض فى الوزن، والفيل الذى يحمل نابين ضخمين إذاحمل مكانهما رجلافإن هذا لايعنى الكثير بالنسبة لعضلات رقبته مما يعنى أنه لو كانت جيوبة الأنفية ممتلئة بالعظام بدلا من الهواء لما اختلف الأمر بالنسبة له كثيرا، وفى حالات التهابها وامتلائها بالإفرازات فإن رنين الصوت يختلف، لكنه من الصعب تخيل أن وظيفة هذه الأجزاء المعقدة يقتصر على إعطاء رنين للصوت، فضلا عن أنها موجودة فى كثير من الحيوانات ليس لها صوت، وقد يُظن أنها تمنع الهواء المستنشق من تبريد الأجزاء المجاورة، بينما تقوم الأنف نفسها بتدفئة هذا الهواء.

تصنعت عدم الفهم فتساءلت:

ـ ثم ماذا، ماذا تقصد.

ـ ماذا أقصد؟ عندما قرأت هذا الجزء لم أنم طول الليل، الجيوب الأنفية، ذلك الجزء الذى يبدو تافها فى الجسدالبشرى،الذى تستطيع بسهولة أن تعيش بدونه، وبالرغم من ذلك فهو فى التركيب غايةالتعقيد، والأهم من ذلك أن لا أحد عرف باليقين ما هى وظيفته.

ـ ثم ماذا.

ـ ثم ماذا؟ كيف لم تفهم؟ العقل البشرى طوال عصور وعصور عجز أن يفهم سر هذا الجزء الحقير الذى يوجد فى احقر حيوان لا فى الإنسان فقط، هذا العقل، ماذا يفعل إذا جابه الأجزاء الأكثر تعقيدا، القلب مثلا أو الكبد أو المخ.

ـ ماعلاقة هذا كله بما كنا نتحدث فيه.

ـ ما علاقة هذا؟ إذا كانت هذه هى حدود قدرة العقل، إذا عجز عن حل أسهل المشاكل فكيف تطلب منه حل الأعقد، العقل الذى عجز عن إجابه لم خلقت الجيوب الأنفية، تسأله لم خلق الإنسان ولماذا يتألم بديلا عن الأسئلة الحقيقية التى تريد أن تسألها، لكنك تنكص كبرياء، فدعك من خداع النفس وتواضع لتسأل مباشرة لماذا انهزمنا فى ٦٧ ولماذا استشهد أبوك. يالها من حماقة، كأنك تسأل تلميذا صغيرا فى جدول الضرب فيعجز، فيكون سؤالك الثانى فى جداول اللوغاريتمات، فيعجز فيكون سؤالك التالى فى نظرية النسبية والكم، كان انفعاله قد تسرب إلىّ، فانسرب الاصطناع.

ـ ومع ذلك فإن العلم البشرى كله كان بالنسبة للإنسان الأول شيئا مجهولا، لكنه بالمحاولةوالإصرار على التساؤل عرف. ولو فكروا كما تفكر لكنّا الآن نتصارع فى كهف على فخذ حمار وحشى!!. كما ان تبخيس قيمة العقل لايفيد منها إلا جاهل.

ـ ألا تفهم أم أنك تصطنع عدم الفهم، العقل البشرى عضو معنوى، محدود فى وظيفته كأى عضو آخر. هل يستطيع الكبد أن ينبض، أو أن تبول من أنفك. لماذا تتخيل فيه القدرة المطلقة. كل ما حولنا محدود فلم يكون العقل مطلقا، هل يستطيع ميكانيكى السيارات أن يصلح جهاز كمبيوتر؟.

ـ قاطعته مستفزا :

ـ إذا فكر بعقله وتعلم.

ـ دعك من هرائك، هل يمكنك أن ترى من خلال الراديو صورة تليفزيونية، وهل تستطيع أن تفك مسمارا، مسمارا دون المفك المناسب له. العقل البشرى كحقيبة الآت الجراحية التى يحملها طبيب، هل يستطيع بالآت عملية جراحية معينة أن يجرى عملية أخرى، لقد خلق لغرض معين محدود إذا استعملته فى غيره أفسدت كل شيء وما وصلت إلى شيء.

ـ ومع ذلك فإن الإحساس بالعجز هو الدافع للكمال. وإدراك الجهل هو الذى يقود للمعرفة.

ـ فى حدود ما تملك من إمكانيات، وإلا فماذا تقول فيمن يحاول الطيران بسيارة و الوصول إلى القمر بطائرة كلاهما لا محالة هالك.

واجهته وقد بدأ الغضب يستعر داخلى:

ـ ومن الذى سيحدد إمكانيات العقل وحدوده. أنت أم شيخ الأزهر أم رئيس الجمهورية.

أم زوج أمى.

ـ بل أنت نفسك.

ـ كيف؟!.

ـ هذه مشكلتك ولا يستطيع أن يحلها أحد سواك، وهنا تماما يامحمد تستطيع أن تفهم فداحة الأمانه التى أبت السموات والجبال أن يحملنها وحملناها نحن، إن الأدلة كلها موجودة أمامك، الشيء وعكسه، البرهان ونقيضة، كل شيء ولا شيء أيضا، وعليك أنت وحدك بعقلك أن تنتقى من كل هذا اختيارك، أن تكون مسئولا عما تصدقة وعما تكذبة ومسئولا عما ترفضه ومسئولا عما تقبله، ومدركا قبل ذلك كله وبعده كله أنك لن تجد فى الدنيا دليلا على أن اختياراتك صائبه، وهذا جوهر مأساة الإنسان.

صرخت فيه :

ـ لماذا؟.

ـ ماذا؟.

قلت وأنا من العذاب فى غاية:

ـ لماذا؟ وما الدليل؟.

فصرخ فىّ هو الآخر :

ـ هل تملك دليلاِ على صحة غيره؟. هل تستطيع أن تتيقن فعلا أن الأمانة عُرِضت عليك فقبلت لكنك نسيت.

قلت ضجرا :

ـ بهذه الطريقة يمكنك إثبات أى شىء وكل شىء كما يمكنك نفى أى شىء وكل شىء.

صاح فى انتصار:

ـ وهذا هو بالضبط جوهر الاختيار الإنسانى ودور العقل البشرىّ.

قلت فى اسى حقيقىّ :

ـ تخيل يا عادل، على مستوى الطب مثلا، ماذا كان يحدث لو التزمنا بطب أبو قرط وابن سينا، لو اقتصر مجهود العلماء طيلة كل تلك السنين على إثبات صحة مامضى، على البرهنة أن أبو قرط لم يخرف وأن ابن سينا لم يخطىء، ثم تبنى بعد ذلك على أفكارهم الخاطئة ما يؤيدها، أما كل ما يناقضها فسوف تصرخ: هذا خارج حدود العقل، وليس هذا دفاعا عن العقل بل عن الأصنام والتخلف، إن هذا هو نفس ما تفعله الآن بالفكر والعقل، كل جهدك أن تثبت أن من مضوا كانوا على صواب. وفى سبيل ذلك لا تنكص عن شىء، حتى عن الغاء العقل نفسه. أنت لا تحدد العقل بل تكرس التخلف.

ـ هكذا أنت، تفترض افتراضات تبدو فى البداية صحيحة ثم سرعان ما تخطىء فى الاستدلال والاستنتاج، لكن انغلاق عقلك يخيل لك أنك وحدك على صواب وأن الآخرين جميعا خطأ.

انفجرت فى ضحك مستهزء:

ـ انغلاق عقلى أنا؟!.

ـ نعم لأنك فاشل.

واصلت تصنع الاستهانة به بقلب مثقل:

ـ شهادة نجاحى أن ينعتنى بالفشل أحمق

ـ الحقيقة أنك عندما لا تنال الممكن تطلب المستحيل، لأن عدم نيل المستحيل عزاء لكبريائك، أما عدم نيل الممكن فلقصور فيك.

كنت قد سئمت، فرددت عليه ساخرا:

ـ أنت لا ترى أبعد من جيوبك الآنفية.

أعترف يا عادل أننى أشعر أحيانا ان كل كلامك صحيح، وأنا نفسى أشعر أحيانا أن ما بى ورم يجب استئصاله، لكنك كنت كمن يجرى الجراحة دون تخدير كاف. لكنى فى أحيان أخرى أشعر أنك دجال وملفق.

نصحى يحضر لى العشاء، أتصل برواية مطمئنا على حال المرضى.

أمين مات، أصبح لخطاب انتحاره الضائع معنى، هل أستطيع الآن قراءة خطاب كوثر؟!، تبدو سوية لدرجة تثير غضبى، ظننت أحيانا أننى يمكن أن أحبها، لكنها تبدو كصورة جميلة فى كتاب من كتب الأطفال،

خير مطلق، وشعور مرهف، وثقافة واسعة، وسرعة بديهة، وسلامة منطق، وقوة حجة، حورية من الجنة أم إنسان له جسد وأعضاء لكل عضو منها حاجاته ونفاياته.

أربعون ساعة وأدخل على أمي وزوجها بملابس أبي وشاربه وسمته، ساعرف بالتأكيد من رد فعل زوج أمي إن كان قد عرف أبي حيا، أما أمي فعلها تسقط مغشيا عليها، لو أن الأمر حقيقي، أبي يعود بعد طول الغيبة فألبسه حلة زفافه وأصحبة إليها، هل ستفعل معه مثلما فعلت معي يا زوج أمي،

لم ننهزم في حرب ٦٧ والفضل لأبي، استطاع بصورة ما أن يحصل على معلومات مذهلة في مثل هذا الوقت، هذه اللحظة لكن من ربع قرن، طار إلى جمال عبد الناصر بطريقة لم يكشف اللثام عنها أبدا، لكنها كانت بوقع المعجزة التي تضمنتها مفتاح ثقة عبد الناصر فيه، هل تعلم ما سيحدث بعد ٣٠ ساعة فقط، سيضربون كل قواعدنا الجوية في نفس الوقت، العريش وبير جفاجة وبير تماما وجبل لبني وأبو صوير وكبريت، وأنشاص، والقاهرة وغرب القاهرة، لكن تركيزهم الأشد سيكون على بني سويف والأقصر حيث قاذفاتنا الثقيلة التي تخشاها إسرائيل. ماذا تقترح يافهمي،

لدى خطه تحسم الحرب فى ساعتها الأولى، ادركنى بها، إليك يا سيدى: هناك ثغرة فى خطتهم يمكن أن تقضى عليهم لو أجدنا استغلالها، ثغرة الفترة ما بين الساعة الثامنة والتاسعة من صباح ٥ يونيو ١٩٦٧، سيكون فى مقدور الطيران المصرى فى نفس الوقت أن يقوم بغارات على المطارات الإسرائيلية لتدمير مدارجها، فإذا جاءت الطائرات الإسرائيلية لضرب مطاراتنا وجدتها خالية، لأن طائراتنا هناك فوقهم، وعندما يفر الباقى من طائراتهم إلى مطاراتهم وجدتها مدمرة واستحال عليها الهبوط، أما طائراتنا فحتى لو دمرت مطاراتنا تستطيع النزول فى مطارات سوريا والأردن والسعودية والسودان. هتف جمال عبد الناصر يالها من خطة، فقال له أبى تبقى عقبة خطيرة لتنفيذها، فتساءل بلهفة أدركنى، فقال أبى: ساراتوجا وأمريكا حاملتا طائرات أمريكيتان تقفان الآن مقابل ميناءى حيفا وأسدود لتقوم طائراتهما بنشر مظلة حماية جاهزة لتأمين القواعد الإسرائيلية حين تذهب طائراتها لتهاجمنا فهتف عبد الناصر وما الحل واخذا يتداولان فى الحل، وأنا اراقبهما وأدعو الله أن يجدا حلا لكننى نمت قبل أن يجداه.

وجدتنى أحومّ فى السماء وملايين الطائرات تسد عين الشمس ورمال الصحراء جنودنا صرعى أو يصرعون، وأنا

أصرخ ياإلهى لقد خصصوا طائرة لقتل كل جندى، أبحث عن أبى فلا أجده فأصرخ يائسا لماذا لم يطع نصيحتك يا أبى. لماذا لم يصدقك، ووجدت يدا طويلة جدا تمتد من على الأرض لتقبض على وتعصرنى وزوج أمى يقهقة فى نشوة، ولاحتى فى أحلام اليقظة ستنتصر علىّ فصرخت من أعماقى يا أبى يا جدتى يارب، فانفتح أمامى الطريق القصير الذى يقودنى من بين المدرجين إلى بيت جدتى فرقصت طربا لأن زوج أمى لا يعرف هذا الطريق، لكننى وجدته مسدودا فعدت فوجدته مسدودا من الناحية الأخرى وأصابنى الرعب عندما أدركت أن زوج أمى قد أدرك سرى فامر رجاله أن يدفعوا المُخْرجيْنِ ناحيتى وأنا أختنق وأصيح اقتلنى يابن الكلب لكننى لن أَطلب عفوك، وضاق المكان بى والصخور تضغطنى حتى تبدلت أنحائى.فأصبح اليمين يسارا واليسار يمينا فأطلقت صرخة عظيمة أم من يجيب المضطر إذا دعاه.

- سلامتك ياباشا، سأحضر لك كوب ماء.

وذهب نصحى بعد أن أحضر الماء يعد الإفطار.

من من الزملاء الموجودين على مائدة الإفطار يعلم أن اليوم هو ٤ يونيو. وأن غدا ٥ يونيو.

ماذا كان يحدث لو لم يكن ٥ يونيو، لو لم نهزم، لو لم يمت أبى أين كان يمكن أن أكون الآن. أين كانت أمى تكون وزوجها وجدتى.

كان مزيج من الحسد والفضول يحرك المدرس المساعد وهو يسألنى:

ـ لماذا يريدك رئيس القسم اليوم فى عيادته؟.

ـ لست أعرف.

ـ يابخت من كان اللواء صادق خاله، ضمنت التعيين.

قلت ساخرا وأنا أتوجه إلى عنبر المرضى :

ـ سأذكرك عند ربك.

ـ صباح الخير يازينب.

تُفاجا بى فيتضرج وجهها، فى جزء من الثانية تحاول تصنع النوم لكنها تدرك أننى آراها وهى لا ترانى فترد التحية فى خجل.

ـ هل تريدين شيئا.

تغمغم بما لا أسمع.

ينادينى النائب كى أذهب بتحليل إلى معمل القصر القديم، أمر على قبر أبى، شدما حزنت يا أبى عندما وجدتهم يهدمون القصر القديم، كان هو كما عرفت الجزء الرئيسى فى الكلية، هنا مشيت وفكرت وسعدت وتألمت وعشت وذاكرت وتشاجرت وخاصمت وصالحت وغازلت وندمت وفرحت وحزنت وأملت ويئست وهذا الجذع الأبتر ربما كان شجرة وارفه استظللت

بها، يراجهنى المبنى الأحمر الجديد الخاوى بلا روح، كتل من الأسمنت والألوميتال والزجاج العاكس، وخبراء أجانب يبنونه، الشائعات كثيرة لكن ذلك لا يهمنى وتلك ليست قضيتى، قضيتى أن القصر القديم الذى عشت أنت فيه لم يبق فيه شيء، لم يبق منه شيء إلا خرابات معزولة يستعملونها متأففين حتى تنتهى المبانى الجديدة فيهدموها هى الأخرى، فى أول اعوامى فى الكلية لم يكن القصر القديم هو قصرك الذى عرفته، كانوا يشرعون فى هدمه، كنت أرى العمال ينزعون الطلاء فينتزع جلدى، ويحطمون الجدران فتتكسر عظامى، ويسقطون الأسقف فتطير رأسى، وينزعون الأبواب فأبيت مكشوفاً معرضا للعراء، كل مكان فيه يحمل لك ذكرى، لم أرها أنا لكنك أنت رأيتها، وعندما باعو الأنقاض أحسست أننى وأنت نباع، نباع انقاضا يا أبى، ثم أتت الكراكات الضخمة والروافع الهائلة تمد أذرعها الأسطورية تخرج أحشاء الأرض كحيوانات ما قبل التاريخ تمد نحوى مخالبها الوحشية تسحقنى وتنهشنى. لو أنهم هدموه قبل أن التحق بالكلية، لو أننى ما رأيته، لو أن ما يحدث لم يحدث أمام عينى، لا يحدث أمام عينى.

سيطرت على أيامها هواجس شتى، منها أن عمرى مرتبط بعمره لأنك انت ارتبطت به، وأننى مع آخر حجر يرفعونه سأموت. منها أيضا يا أبى أن الأجساد الراقدة فى المشرحة ستهب ذات يوم فى غضب إعصارى تدك أجسادهم وكراكاتهم وروافعهم فلا يجرؤ بعد ذلك على المساس بالقصر أحد وتنتشر فى العالم شائعة أن به لعنة كلعنة الفراعنة تميت كل من يشارك فى هدمه.

أسلّم العينة. أعود من نافذة شيم الشافعى، حتى قصر عمر الخيام الذى عرفته يا أبى غيروا اسمه، اسمه الآن ماريوت، وأنا أعرف عمر الخيام لكننى لم أعرف من هو ماريوت قط، وهذا الكازينو على الجانب الآخر من الكوبرى هل جلست فيه، يا إلهى، يخفق قلبى عندما أرى على الكوبرى الآخر عادل بلال وآمال يتحدثان فى اهتمام متجهان للقصر القديم، لو أننى غيرت طريقى لكنت قابلتهم، كنت ساصافح آمال بالطبع ثم اصافح عادل، كان يمكن لهذه الصدفة أن تنهى القطيعة، لماذا اختار كلانا طريقا آخر، ألهذا أيضا معنى ياعادل، كيف أستطيع أن أفهم أواقتنع، أنا الذى أعجزنى الظاهر كيف أقبل الخفى.

أين كنت هذه اللحظة تماما يا أبى منذ خمسة وعشرين عاما، هل جال بخاطرك أنك فى اليوم التالى ستموت، ألم تكتب رسالة إلى أمك أو امرأتك أو ابنك الذى كان لم يولد بعد، أم أنك ياحبيب كتبت لكن الرسالة تمزقت مع ما تمزق من أشلائك واحترقت مع ما احترق منها.

قبيل القسم يقابلنى المدرس المساعد فيرد على سخريتى به :

- اذكرنى عند ربك.

- عند ربك أنت أجل عند ربى أنا لا.

لولا خوفه من علاقتى برئيس القسم لأصر أن يعطينى صفرا فى كارت سنة الامتياز.

كان مهندس الصيانه ينتظرنى فى المكتب للتوقيع على اصلاحه لجهاز رسم المخ الذى كان معطلا منذ مجيئى للقسم، طلبت منه أن يجريه أمامى، كان سعيدا بقدرته على إصلاحه منوها بأن العيب رغم ببساطته من أعقد

العيوب، فكل أجزاء الجهاز سليمة، واختباراتها بالجهاز الإليكترونى لا تظهر خللا، وقد حاول كثير من المهندسين قبله لكنهم عجزوا حتى فكر هو فى أنهم جميعا قد جربوا الأجزاء المنفصلة لكنهم لم يفحصوا عمل الجهاز ككل، وعندما فطن إلى ذلك اكتشف أن بعض ذرات التراب أدت إلى سوء التوصيل فى أحد أشباه الموصلات.

وقعت ووقعت رواية.

ـ لماذا أنت هنا ياراوية، أليس اليوم راحة السهر.

ـ بدلت مع زميلتى حتى أناوب اليوم وغدا.

ـ لكنى هذا مجهد جدا لك.

ـ لكنه أفضل مما ينتظرنى فى البيت.

ثم أردفت:

ـ ليتك كنت مناوبا اليوم يادكتور محمد.

ـ خيرا.

قالت دامعه :

ـ احتاج إليك، إلى من يسمعنى ويشير علىّ.

ـ تحتاجين لفترة من الهدوء والمناورة ياراوية، وكل شىء يُحل إن شاء الله.

قالت بأسى وكأنها تكلم نفسها :

ـ يتهموننى بأننى أردت أن أتزوج من طبيب حتى أكرر قصة راوية القديمة وأكون زوجة وزير، لكن ليس هذا هو فقط الذى حلمت به، وددت

أن اتفوق عليها، فأخذت أقارن نفسى بجيهان السادات فى مثل عمرى، الشكل والشهادات والفقر فطمعت أن أكون زوجة رئيس.

احترت فيما يمكن أن أقوله للتخفيف عنها فلم أجد بدا من الاستعانه بقاموس جدتى :

ـ ليس ذلك على الله ببعيد.

لكنها واصلت بلهجة نادبة :

ـ وينتهى بى الأمل للزواج من بلطجى لأكون بعد عامين صورة من أم فتحى.

ـ أصبرى ياراوية ومهما كان الأمر لن يزوجوك رغما عنك.

مع دفقة بكاء قالت :

ـ بل يستطيعون.

مسحت دموعها بعنف من ينتوى أمرا :

ـ لقد فكرت أن ألجا إلى السيدة التى حكيت لنا عنها أمس.

أمس. متى كان هذا الأمس، يخيل إلىّ أنه حدث منذ مليون سنة، استرددت نفسى سريعا فأجبتها :

ـ لكنها قوادة.

ـ ولو.

ثم تمتمت:

ـ المومس التى تعيش حياتهاحرة، افضل مما ينتظرنى، لها جزء من

الاختيار وتتقاضى أجرا، وتلبس وتأكل وتذهب إلى أفخم الأماكن، أما حياتى مع هذا الرجل كيف تكون.

ـ أنت تحتاجين للوقت، لا تتسرعى، وسوف يظل القرار النهائى فى يدك دائما.

قالت مترددة :

ـ فكرت أن خالك يمكن أن يتوسط لى للعثور على عقد أو أن ...

ـ لكن ياراوية. . . .

ـ أفهم يادكتور محمد وقد حذرتنى الدكتورة آمال من مفاتحتك فى هذا، لكنك تستطيع مساعدتى بطريقة أخرى.

ـ كيف؟

ـ لايوجد مكان فى الدنيا أهرب اليه، سأحاول منع هذا الزواج ما استطعت، لكن إذا لم استطع، هل تقبل أن أقيم معك فى شقتك شهرا أو شهرين أدبر فيهما أمورى.

فاجأنى عرضها فارتبكت، لكتها واصلت :

ـ لا أريد منك شيئا أبدا ولن أكلفك شيئا فهذه السلسلة وهذا الإنسيال والخاتم تكفى ثمنا لطعامى حتى أستطيع أن اتصرف.

ـ الأمر سابق لأوانه ياراوية، وأنا معك حتى نهاية الشهر ونستطيع مناقشتة فى حينه.

ـ سأعتبر أنك لم ترفض.

دهمتنى الحيرة، وما بين اشتهاتها والإشفاق عليها والخوف من العواقب لم أدر ما أقول.

– أرجوك هذا سر بينى وبينك، لن تقول بالطبع للدكتورة آمال ولا لأى أحد آخر، حتى كوثر.

– إن شاء الله

الواحدة والنصف أذهب لانتظار آمال.

تتناثر مكتبات الكتب الطبية حول المدرجين، أحيى عم زكريا العجوز الذى لم يبرح مكانه الضيق هذا داخل الكشك المزدحم بآلاف الكتب، منذ دخولى الكلية لم يبرحة كأنه ولد فيه وسيموت فيه، أين كنت ياعم زكريا يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ ، هل عرفت أبى؟ يرد الرجل تحيتى بيد ترتعش تحت وطأة السنين فيمتلئ قلبى إشفاقا عليه، لماذا تعيش ياعم زكريا، لماذا تعيش ؟!

المصيبة أنه حتى الداعرات والقوادين والبلطجية والقتلة يتعذبون حتى يستحقون الشفقة قبل الإدانه.

ومصيبة أخرى أننى مقتنع على وجه ما بكل مايقول عادل أو تكتبه كوثر، لكننى غير قادر على تحويل هذا الاقتناع الى إحساس أمارسه، إلى صورة كتلك التى بدت على شاشة جهاز رسم المخ عندما اكتشف المهندس بعد جهد سبب تعطله. هل يمكنك ياعادل أن تحاسب هذا الجهاز لأنه تعطل، لأن ذرات للتراب لا يعرف عنها شيئا تسللت إلى داخلة فأعطبته.

كنا فى جولتنا الليلية على شاطئ النيل وكنت أقول له :

- بماذا تحكم على أفكارك وأنت فى الخامسة.

- ماذا تعنى؟!.

- وبماذا تحكم على أفكار الإنسان الأول وعلومه.

- أحكم أنه يتطور وأننى أيضا أتطور.

- وأفكارك التى تقتنع بها أشد الاقتناع الآن، ترى ماذا سيكون تقييمك لها وأنت فى الأربعين من عمرك، وماذا سيكون رأيك فى أفكارك الأربعينية عندما تصل إلى السبعين من عمرك، ولو قيض لك أن تعيش ألف عام، لماذا تظن أن رأيك يومها عن أفكارك فى السبعين سيختلف عن رأيك الآن فى أفكارك وأنت فى الخامسة.

أحسست به متخاذلا حائرا لكنه قال :

- ذلك يملؤنى بالإعجاب بدأب الإنسان وسعيه للحقيقة.

صرخت فيه :

- لكنه لا يصل أبدا، وهذا السعى الخرافى المذهل وكل هذا العناء لم يؤد به إلا إلى الانتقال من باطل لباطل، ولو أتيح لك أن تتطلع إلى هذا المكان بعد خمسة آلاف عام لوجدت اثنين يتضاحكان على بدائية إنسان القرن العشرين وتخلفه. الكل باطل يا عادل، الكل باطل، مامن شئ صحيح، مامن حقيقة.

قال فى انفعال مشوب باحتقار :

- أتظن أن كل هذا خلق عبثا، لقد قرأت ردا لأحد المفكرين

على فكر معوج كفكرك، قال له أن تخيل وجودنا ووجود الكون من حولنا بالصدفة يشبه من يتخيل انفجارا حدث فى مطبعة فتطايرت أجزاؤها إلى أن يتكون من هذا الانفجار آلاف النسخ المتماثلة من قواميس للغات المختلفة كل منها مرصوص فى مكان مختلف، وأن انفجار مخزن آخر أدى إلى تجليد هذه القواميس، ثم أدى انفجار أكبر إلى توزيعها على مكتبات لندن وباريس والقاهرة !!.

عمـّ تدافع يا عادل.

انـتـظرناهم من الشرق فجاؤونا من الغرب.

أنت انتهزت قولى لك مرة أننى لا أومن فتشبثت به لأنه يضعف موقفى فى الحوار أمامك، يا عادل أنا مؤمن به حتى اليقين بأنه لا ينكر وجوده عاقل بل مريض يحتاج للعلاج، لكنى لا أفهم . ولأننى لا أفهم حقاوأنت تصر على عدم الفهم فسوف أواصل إيذاءك واستفزازك:

ـ لاشئ خلق عبثا، لم خلقت هذه الذبابة التى تطن الآن أمام وجهك؟

ـ لغاية لا نعلمها. وقد يتوقف مستقبل البشرية على جرثومة تنقلها.

ـ عندما تنقل الجرثومة هل تعاقب وعندما ينهشها عنكبوت هل تثاب؟. هل فى الجنة مكان لهذه الذبابة؟.

ـ لا أعرف.

ـ لماذا لا تشك إذن أن الإنسان يمكن أن يكون تعيسا مثلها، خلق من أجل غرض عابر ثم يقذف به فى العدم.

راويـــة ستأتى للإقامة معى؟!.

كيف سنمارس الحب أول مرة؟!.

كيف تكون التماعة الرغبة فى عينيها، كيف تكون ارتجافة اليد ورائحة الجسد وكيف تشبق.

هل تتمنع وهل أهاجم، أم أصطنع السلبية حتى تبدأ هى.

هل ستعوضنى عن شوشو؟، وهل تملك خبرتها.

هل يسفر الأمر عن زواج فى النهاية، أم جريمة قتل؟!«

يقول إبراهيم أبو شنب أن هذا أمر لا يحتاج إلى خبرة فالحيوانات الضالة تمارسه أفضل منا، أما مصطفى أبو عوف فيقول فى دهشة ساخرة أنه لم يحدث قط أن خيبت امرأة رجاءه فيها، سيدات آنسات صغيرات كبيرات متبرجات محتشمات، ثم التفت إلى عادل صائحا: هل هن .. أقصد هل الإنسان تعيش إلى هذا الحد. وقال له عادل: ماذا تبقى لك بعد أية متعة، فقال: الرغبة فى متعة أخرى، فقال عادل ألم تفكر أبدا أنك ستحاسب، فرد ضاحكا لكننى سأتوب، فقال عادل مغضبا أترضى أن يحدث هذا لأمك أو أختك فاحتج مصطفى صائحا: هذه مؤامرة لضمى لحزبك، ثم واصل ضاحكا: أستطيع أن أفهم سر كآبتك فأنت تحرم نفسك لكن ماسر كآبة محمد فهمى، ثم التفت نحوى صائحا: قل له أن احتباس الماء الدافق فى الجسم سام مثل احتباس البول وانسداد الأمعاء.

بعد ذوبان الجمود بينى وبين شوشو، قبل أن أعرف أنها فلسطينية، كانت العلاقة ممتعة فتساءلت هل يمكن أن أصل إلى إحساس النشوة الدائمة، أن أستبدل بالعمر كله لحظات الشبق القصيرة الرائعة، أن أقتنصها من براثن الزمن، أغزل منها خيوطا أنسجها أفرش نسيجها على الأيام والليالى فإذا ها شبق دائم مستمر لا يخبو ومتعة لا تفتر وتلاش للإحساس بالزمن لا يتوقف.

لكن النشوة لا تدوم، والعقل لا يحل مشكلة ولا يمنح رضاً، ولقد وددت يوما أن أدلف إلى عالم وجدان عادل بلال وأغوص فيه لكننى كنت أدرك أنه بحر بلا قرار وأنها تجربة تستغرق العمر كله أموت قبل أن أعرف ما إذا كانت قد نجحت أم فشلت، فأنى لى الصبر أنا الملول من يوم واحد.

أم أنك نسيت تجاريك، محاولاتك أيتها الذبابة كى تفلت من خيوط العنكبوت، عندما سئمت شوشو فقررت فجأة أن تدرس اللغات الأجنبية فأخذت تتردد على مراكز تعليم اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية كخطوة أولى نويت أن تتبعها بباقى ألسنة الدنيا، ورحت أيها التعيس تمنى نفسك بطوفان من النشوة لا يغيض عندما تتطلع إلى آداب العالم وأفكاره من داخلها حتى بخعت نفسك لماذا لم تتخذ هذه الخطوة منذ زمان طويل، فبها وبها وحدها تشبع هذا الجوع الغامض المستعر داخلك، ومضت شهور وأنت تقاوم إحساس الملل والفتور الذى أخذ يتسرب إليك، ووجع الجوع يشتد سعاره، وتقلصت دروس اللغات أخيرا إلى اصطياد الفتيات فأقلعت عنها، ثم انبهرت بالكمبيوتر ذات الانبهار فأخذت تقنع نفسك بأن لغاته هى لغة العالم الجديد، فانكببت عليها حتى تمخض الأمر

أخيرا عن اصطياد الفتيات فأقلعت عنها بعد أن شدتك الموسيقى، ياله من ألم فالذبابة البائسة مازالت بعد بين خيوط العنكبوت. وسألتك شوشو حين وجدت فى الفراش شيئا هل تخوننى فأجبتها بل أخون نفسى فقالت لا أفهم فقلت لها ولا أنا ثم سألتها ما اسمك الحقيقى فقالت شريفة فانفجرت ضاحكا، فراحت من الغضب فى غاية، ثم أخذت باقى الليل تسخر منك.

الساعة الثانية والنصف، أنظر مرة أخرى إلى الشاهد الرخامى الذى يحمل اسم أبى. لماذا تأخرت يا آمال. لم نتواعد لكن بين المدرجين موعدنا كل يوم لا نناوب فيه، لم تتأخرى عنه قط حتى قلت ضاحكة أثناء الدراسة لو أننى واظبت على المحاضرات بهذه الطريقة ما نافسنى على ترتيب الأول إلا أنت.

فاجأنى مصطفى باسما :

ـ هل تنتظر آمال.

ـ .....

ـ لن تأتى.

أبدى حنانا مفاجئا، غير مبرر، فأخذت أوطن نفسى على طعنة سخريته القادمة :

ـ مابك. شكلك غير طبيعى.

ـ لا شئ يا مصطفى.

فواصل مقهقها :

ـ آه، تذكرت، نحن الأن فى أوائل يونيو، وقد جاءتك آلام الدورة السنوية.

ثم مضى وهو يواصل قهقهته.

يحاصرنى الملل، كضباب كثيف فى فجر يوم صيفى قائظ، تتحول القطرات العالقة إلى زيت لزج تطبق علىّ ككبو يسجن روحى التائقة للانطلاق خلف أسوار العناء والألم واليأس. تشابكت الخطوط. تعقدت الخيوط. لم يعد هناك أمل.

قال عادل غاضبا :

ـ دعك من هذا الهراء، أنت كالطفل الذى يحطم اللعبة التى يحبها غضبا، ثم يضرب عن الطعام متضرعا إلى الله أن يلح أبواه فى محايلته كى يأكل.

قلت فى استفزاز:

ـ أنت تسقط على مشاعرك، أحداث حياتك أنت لا حياتى.

قال غاضبا :

ـ أصعب درجات الصدق أن تكون صادقا مع نفسك، لا ذلك الصدق السطحى البرئ الساذج، وإنما الصدق المأساوى الذى تدرك به دخيلة نفسك.

قلت بصوت فخيم ساخر :

ـ الآن يحدثكم عادل بلال رضى الله عنه. تصفيق حاد. تفضل يا مولانا فالجماهير تتحرق شوقا إليك.

تجاهل سخريتى فواصل :
- لا أنكر أنك عشت حياة صعبة، لكن الملايين عاشوا وسيعيشون حياة أصعب منها بما لا يقاس، كان يمكنك أن تكون صادقا مع نفسك، أن تحدد مشاكلك وتواجهها لتحلها بدلا من الهرب منها، كان لديك قدر هائل من كبرياء مرذول يجعلك تستنكف الاعتراف بالحقيقة، كبرياء يجعلك ترفض أن تكون مشاكلك هى ظروفك الخاصة، والعامة أيضا حتى لا أظلمك، فى موت أبيك، واختلاط ذلك بتوارى القضية التى مات فى سبيلها فى هزيمة شاملة للوطن.
- يا عادل حتى أبى لم يمت فى سبيل قضية وإنما مات رغما عنه، وربما لو خيِّر ماذهب.
وواصلت الحديث دون صوت أن الذى انهزم ليس الوطن بل الحق والعدل والخير والجمال والمنطق والتاريخ والجغرافيا والشعر والموسيقى، الذى انهزم هو القدرة على المواصلة، على التحمل، لم تكن الهزيمة أبشع نتائج ٦٧ بل فض بكارة العالم وذهاب ما لا يعود. وقلت له :
- لو أنه اختار أن يموت فى عمليةفدائية مثلا لكان لذلك معنى.
لكنه واصل كأننى لم أقاطعه :
- مشاكلك أيضا كانت صلابة جدتك وقسوتها وجفوة أمك وبغضك لزوجها، ثم إدانتك للجميع وإدانتهم لك، حتى

أصبحت الغاضب المغضوب عليه والناقم المنقوم منه، لكن كبرياءك يجعلك ترفض أن تكون مرفوضا معذبا مهانا من هؤلاء، لذلك تحاول أن تلغيهم داخل ذاتك، وقد انطلت عليك الحيلة لكن بقيت مشاعر الحقد والغضب والعجز فى قلبك هائمة كطير لا يجد مكانا يحط فيه، كان يمكنك أن تُغرق ذلك كله فى الدين وأن تغسله به، وكان يمكن أن تستغله فى الفن أو الأدب فتصبح نجما يُشار إليه، وكان يمكن أن تفجره فى عمل سياسى قد يدفع بك أن تكون بطلا قوميا يسجل التاريخ بطولته، كان يمكنك أن تكون كل ذلك، لكنك كنت تعرف أن كل هذه الوسائل مجرد هروب، تنفيس، لكن كبرياءك يرفض ان تهرب، فلم تر أيها الطائر التعيس الذى لا يجد أرضا يهبط عليها، لم تجد إزاء عنف غضبك وحدة آلامك إلا أن تختار عدوا تسقط عليه كل هذه المشاعر يكون جديرا بها، عدو لا يخجلك أن تعترف بعداوته، كنت أنقى وأذكى من حسن عبد الفتاح فلم توجه توترك الداخلى ضد المجتمع بالتطرف، كنت تريد عدوا أكبر من أى عدو يمكن أن يصل إليه غيرك، فلم تجد أعظم ولا أكبر من الله، ولما كنت أيها الضائع لا تدرك الوسائل التى تعاديه بها فقد فرض عليك كبرياؤك ألاّ تنسحب، ولم يكن أمامك إلا إنكار وجوده، فقد خيل لك خيالك السقيم أن ذلك يحل الأمر كله. لكن ها أنت ترى، أنك فى نفس اللحظة التى تتكره فيها تعترف بأنه

أعظم وأكبر مافى الوجود، أيها الدب الذى قتل صاحبه من أجل ذبابة.

كيف هان عليك يا عادل أن تصدقنى.

الثالثة والنصف ولم تأت امال، أين ذهبت، لعلها بادرتنى بالسأم منى، ولعلها الآن مع عادل بلال يتجولان فى رحم المدينة، بل يمكن أن يدخلا السينما الآن، هل تتلامس الأذرع وتتشابك الأيدى وتلتصق الساق بالساق، هل يمكن أن تتزوج آمال من عادل، هل هو الذى سينشيها أن تخونه معى، وكل هؤلاء الذين يمرون الآن بى يعرفون أننى أنتظر آمال وأنها تركتنى وذهبت مع عادل بلال.

آه لو تفيق أمى فجأة، لتعرف كم عذبتنى. كم اساءت إلىّ وآه الأسطورية التى لا بد أطلقتها جدتى حين لم يعد أبى.

ألتفت إلى قبر أبى، أشكوهم له ، ألقى عليه تحية الوداع وأمضى إلى بيته، على السلم تقابلنى جارتى فأهمس دون سابق قصد:

ـ مساء الخير.

وأدهشنى أنها غمغمت بما يمكن أن يكون ردا ثم ولّت هاربة.

أعد لنفسى الطعام.

هل كان أبى يعد لنفسه الطعام قبل أن يتزوج أمى.

سوف أسأل رئيس القسم اليوم عن تفاصيل حياته، ترى لماذا يريدنى، ماذا يمكن أن يقول لى عن أبى، ماهى الذكريات الحميمة التى دفعت بالدموع إلى عينيه بعد ربع قرن. فقرة إعلانية فى التليفزيون، فتاة لعوب تقبل رجلا يشبه مصطفى يمسك بيده حفاضة من حفاضات النساء قائلا فى لهجة المنتصر: أخيرا، اكتشفنا لك هذا من أجل راحتك يا سيدتى. بأى لهجة كان يمكن لهذا المذيع أن يذيع انتصارنا فى ٥ يونيو ١٩٦٧.

هل كان يمكن أن ننتصر؟ لو اختلفت التفاصيل هل كان يمكن أ ن ننتصر، لو انتصر محمد نجيب، لو عزل عبد الحكيم عامر، لو استقبل جندى الإشارة تحذير عبد المنعم رياض، لو لم نغلق خليج العقبة، لو لو لو مليون مرة، ولو انتصرنا هل كان أبى يبقى.

صرخت فى وجهه :

- أكان يطل عليه من عليائه وهم يطاردونه فى الصحراء جائعا عطشانا نازفا ممزق اللحم والملابس محطم العظام

أجب يا عادل، هل كان لا بد أن يحدث ما حدث أم كان يمكن تجنبه، بفكرك هو قدر، لم يكن هناك جدوى إذن من محاولة تجنبه وليس الآن جدوى للبكاء عليه، نحن هكذا يا عادل كفئران التجارب البيضاء الصغيرة المسكينة التى يجرون عليها التجارب فى معامل الكلية، لا تملك من أمر نفسها شيئا، ماذا تعنى إرادتها إزاء إرادتنا القاهرة. ماذا تعنى حياتنا إذا كنا كذلك، لماذا كان على أبى أن يكافح ويجد

ويعيش ويأمل ويألم إن كان فى اللحظة الحاسمة سيموت، ألم يكن ثمة أمل فى إنقاذه.

تدق ساعة الحائط معلنة السادسة مساء، بعد ٢٤ ساعة أفاجئ أمى وزوجها، طوال عمرك تصدمينني، فماذا يمكن أن تفعلى غدا حتى تخيبى أملى. أملى فى أن أراك مصعوقة مذهولة وأنت تظنينني هو، لحظة أن تفتحى الباب فتجديه فى المواجهة. هل يمكن ألا تعرفيه.

هل يمكن أن تنكريه.

أم تنكرينى أنا.

إن كنت ستفعلينها غدا فلطالما فعلتيها، لماذا، لماذا تخليت عنى، لماذا، ولماذا أمسى أبى لك كأن لم يكن، لو أننى أعرف ربما لاسترحت، لو أردت مالا لبذلت، عونا لعاونت، حبا لأعطيت، لو احتجت أن أتبرع لك بكلية أو نصف كبد أو حتى والله قلب لفعلت عن طيب خاطر، لكنك أخذت ما هو اكثر من ذلك كله، أخذتيه لتسفحيه دونما ثمن.

كلهن .... يا أحمق

بل يا أحمق أنت، اتصدق حقا أن جدتك ليست امرأة؟!

أكل أفكارك خيال هكذا، وهم هكذا، باطل هكذا، باطل أمامك وباطل خلفك وباطل عن يمينك وباطل عن يسارك وباطل من فوقك وباطل من تحتك، الكل باطل. مامن كلمة حق وما من كلمة صدق.

المساء موعدى مع رئيس القسم، وهذه أيضا معضلة، فالمساء يمتد من الظهيرة حتى بواكير الصباح، أين الكمة التى لا تعنى إلا معنى واحدا، أم أن العيب فىّ.

أخرج حلة أبى، أحتضنها وأقبلها، وأضعها فى حقيبة وآخذها إلى الكواء:

ـ أحتاجها غدا بعد تنظيفها بالبخار.

ـ سوف تكون جاهزة مع باقى ملابسك يا باشا.

لا تنادنى بهذه الكلمة فكلما قيلت ذكرت زوج أمى.

أنطلق سائرا إلى ميدان باب اللوق.

٥ يونيو الماضى كان عادل حريصا على ألا يتركنى وحدى، كان يوم أربعاء، لكنه جعلنى أمقته، وأمقت نفسى، كنا فى معمعة الامتحانات الشفوية للبكالريوس، جاءنى منذ الصباح الباكر فى منزل أبى:

ـ أنا دعوت نفسى للإقامة معك اليوم، إفطار وغداء وعشاء، فهل تقبلنى.

وامتننت له، لم يذكر ٥ يونيو ولا ذكرى أبى وإنما أخذ يتصنع المرح ويتحدث أحاديث شتى، لكننى سألته فى النهاية:

ـ أليس هناك سبيل لتجنب ما يحدث.

فأجاب :

ـ وكيف تعرف الغيب كى تتجنبه.

ـ نحن هكذا نسير عميانا فى صحراء فسيحة مليئة بالفخاخ، فما الذى يدفعنا لمواصلة السير.

ـ أننا لا نعرف، قمة نضج العقل البشرى أن يعرف أنه لا يعرف.

ـ لكى نموت؟.

ـ أجل، لكى نموت، لكن فكرتك عن الموت هى التى تعطى الإجابة معناها الحقيقى.

ـ كل هذا العناء ثم نموت. وحش خرافى لا تدرى متى يفتك بك، ينتظرك فى أى وقت وفى أى مكان، كيف نستطيع.

ـ ليست مأساة الإنسان أنه يموت.

ـ أعرف ذلك، فالمأساةأن نعيش.

ـ ولا أن نعيش أيضا، مأساة الإنسان أنه محكوم عليه بالخلد وأنه لايدرك ذلك. نعم يامحمد، ثمة حياة عشناها قبل أن نولد، وحياة اخرى سنعيشها بعد أن نموت، أنظر إلى دودة القز، إلى حياتها دودة تمثل طور الحياة البشرى، ثم انظر إليها تتشرنق فتدفن نفسها ملخصة طور الموت، ومن قبرها ذلك يخرج أجمل أطوارها : الفراشة لو أتيح لهذه الدودة أن تفكر وأن تتخيل أن طور الدودة هو الطور الوحيد لحياتها لكانت مثلك الآن متسائلة عن جدوى كل شئ.

ـ أثبت.

ـ ماذا ؟!

ـ أثبت ماتقول ، كل شئ قد يكون حقا وقد يكون باطلا فائتنى ببرهانك.

قال ضاحكا وهو يمسك رواية بين القصريين ليفتحها على صفحة كيفما اتفق :

ـ اثبت لى من هذه الصفحة فقط أن فهمى مات ...

طرفت عيناى فأدرك بعد فوات الأوان أن فهمى هو اسم أبى أيضا، ارتبك للحظة وتلعثم لكنه واصل :

ـ أثبت لى منها أيضا دون ان تنظر فيما قبلها أو بعدها أن السيد أحمد عبد الجواد سينكمش حتى يحمله كمال ـ الطفل فى هذه الصفحة ـ بين ذراعيه، وأن كمال الذى يبدو فى هذا الجزء طفلا لاخطر له هو البطل الحقيقى للرواية كلها، وأن ... وأن ...

ـ هل تعرف ياعادل أننى فكرت ذات يوم أن أكتب جزءا رابعا لثلاثية نجيب محفوظ أجعل كمال ينتحر فيها.

قال ضاحكا :

ـ لو فعلتها سيسحبون منه جائزة نوبل.

قلت له :

ـ هل تعرف أننى أفكر كثيرا لماذ شددت الأديان عقوبة الانتحار، فالدين لكى يقاوم رغبة الإنسان فى الاستيلاء على ممتلكات غيره شرع حد السرقة، ولمقاومة الشهوة شرع الجلد والرجم، ولمقاومة القتل شرع القصاص، فما هو الشئ الذى كان الدين يقاومه حتى يشرع أخطر العقوبات وأقساها للانتحار، هل يوجد فى داخلنا رغبة للموت تفوق كل غرائزنا وشهواتنا؟.

ـ لا، ليس الأمر كذلك، وإنما هى لجنة امتحان، فحتى من يرسب فيها أفضل ممن قاطع الامتحان أو هرب منه.

قضينا اليوم بطوله نتحاور، وفى المساء دعانى إلى السينما ثم عاد

ليقضى الليل معى، بعدها بيومين اكتشفت أنه خرج من عندى صباح الخميس إلى لجنة الامتحان الشفوى، وذهبت إليه غاضبا أشد الغضب :

ـ إذا كنت تريد تمثيل دور النبى فليس على حسابى

ذهل من هجومى غير المتوقع متسائلا عن السبب.

ـ لست المسيح الذى يحمل صليبه تكفيرا عن خطيئة البشر.

ـ ماذا حدث.

ـ عندك امتحان يوم الخميس وبدلا من المراجعة تقضى معى الأربعاء بطولة وليلة الخميس أيضا.

رمقنى معاتبا حتى حرت فيم يعاتب.

ـ هل تظن أن ٥ يونيه يخصك فقط.

تفتت غضبى كقطعة صخر هائلة استحالت إلى تراب فقلت متخاذلا.

ـ ومع ذلك لن أغفر لك.

لافتة صغيرة تحمل اسم رئيس القسم، لو لم يمت أبى لكانت لا فتته بجوارها، كنت الأن أصعد إليه، يتلقانى فى أحضانه : ما أسعدنى بك يامحمد وقد أصبحت طبيبا مثلى، تكمل مسيرتى من بعدى، هل تعلم ياأبى أن زوج امرأتك كان مصرا على أن أكون مثله هو لا مثلك أنت، يا أحمق غيرك يتوسل أن يدفع ١٠٠٠٠ جنيه ويدخل هذه الكلية وأنا سأدخلك فيها وأتولاك، إنها فرصة عمرك، ماذا يساوى الطبيب الان، وامرأتك يا أبى تلح علىّ كى اسمع كلام خالى فهو أكبر ويعرف أكثر، لكنه يا أمى ليس خالى

ولم يكفا إلا بعد أن واجهتهما لكننى أريد أن أكون مثل أبى فعندئذ خيم الصمت وقام العجل مستاء فقالت أمى أهذا جزاء الإحسان.

سألت وسط الزحام من لا أعرف :

ـ أين الممرض.

فأجاب ساخطا :

ـ مشغول أكثر من الطبيب نفسه.

فسألت غيره :

ـ متى يحضر الأستاذ.

ـ حضر الساعة السادسة وفحص مريضا واحدا ثم استدعوه.

تساءلت :

ـ استدعوه ؟.

فتشكى مريض متأوها :

ـ هذه ثالث مرة أحضر ولا أستطيع مقابلته.

وتشكى آخر :

ـ على طول ترددى عليه لم يحدث مرة واحدة أن لم يستدع، مرة رئاسة الجمهورية، ومرة سفير ومرة أمير ومرات عشرات المستشفيات التى يعمل فيها.

عثرت على الممرض أخيرا :

ـ يوجد موعد مع الأستاذ.

ـ إن كان كشفا فبعد شهر.

ـ ليس كشفا بل موعدا خاصا.

نظر نحوى باستهانه غير مصدق فقلت :

ـ أنا طبيب عنده فى القصر العينى وهو يريدنى.

ـ لحظة واحدة.

هل أقول له أننى ابن صديقه، أم أحكى له عن موقفه وهو لايكاد يستطيع كبح دموعه، أم أهدده بزوج أمى.

يغيب عنى طويلا فأبحث عنه فى حجرات العيادة بين الموضى، يتساءل مرة أخرى وهو لا يكاد ينظر إلىّ :

إن كان كشفا فبعد شهر ونصف.

قلت بعصبية :

ـ قلت لك إنه موعد خاص.

تطلع إلى المرضى كأنما يشكو لهم هذا الاحمق الذى جاء فى هذا الزحام لموعد خاص، ثم موجها الحديث إلىّ.

ـ الباشا فى رئاسة الجمهورية الآن، الله أعلم متى يعود إن عاد اليوم، عندما يعود سأخبره

تركنى فى عجلة فصحت فيه :

ـ ألا تعرف اسمى كى تخبره.

فسألنى فى تبرم فكتبه على علبة سجائر.

الشارع أرحب لى، على أى حال لم يكن ممكنا أن أنتظر فى ذلك الزحام، أجول فى شوارع المدينة ، أحدث السحاب والجدران والمقاهى، أنا الذى سألت نفسى قبل الذهاب : حين يبكى، هل اترك لنفسى العنان أنا

الآخر أم أتجلد، ماذا ستفعل أمي غدا حين تراني بشكل أبي، آه يارب، لو أنك خلقت الإنسان أقوى، أعظم، أكثر نبلا، أقل ألما، أسعد، أقل وحشية وخسه، أدور في رحم المدينة، فتلك العمارات والشوارع والميادين والأرصفة شاهدة على عذابي لاتأبه به، وتلك السحابة الصيفية العابرة يمتد منها بروز كأنه لسان يسخر مني، يلتف النهار الراحل حولي كأفعوان يمتصني، يهدرني يمرغني في الوحل والمهانة. العشاق يسيرون في الشوارع متعانقي الأذرع سعداء يامحمد فهمي عبد الله فلماذا تحمل هم البشرية على رأسك كأنك مسئول عن بؤس العالم، ثمة فتاة يغازلها فتى فتقف متسائلة بصوت عال غير آبهة بكل من حولها : ماذ تريد فيؤخذ الفتى لكنه يجيب بتردد، أريد القرب فتسأله هل معك مائة جنيه فيشحب وجهه قائلا لا فتقول باحتقار لماذا تغازلني إذن، شوشو أكثر وقارا، تضحكني كلمة الوقار في البغاء، أنه حتى في البغاء يوجد درجات، لم أدفع لشوشو إلا في المرات الأولى، لكنني كل حين وآخر كنت أقدم هدية، هل يمكن أن أدخل هذا المتجر لأشتري رطل سعادة، أوقية رضا، درهم حنان، مثقال ذرة أمل.
ماذا تريد يامحمد فهمي عبد الله، أكان شقاؤك يقل لو قابلت رئيس القسم اليوم، أيقل لو فوجئت بعادل بلال أو شوشو أو آمال الآن أمامك، أكنت تكون شخصا آخر لو لم يمت أبوك، لو لم ننهزم، لو تغير كل هذا أكتنت تتغير أنت، أم تبقى كما أنت، تصبح غاضبا مكفهرا يائسا تعد الساعات حتى يأتي الليل، ثم يأتي الليل فتعد الساعات حتى يأتي النهار، أن تظل هكذا يوما فتجربة طريفة، مائة يوم شئ يبعث على الملل، ألف يوم لاتطاق، عشرين ألف يوم تكون مجنونا إذا لم تجن.

لكن لماذا أنت وحدك يامحمد، وفى الشارع الآن بين هؤلاء الذين لاتعرفهم عشرة آلاف استشهد آباؤهم، ومائة ألف تزوجت أمهاتهم فلماذا أنت وحدك، لماذا، هل كان عادل على صواب، أكان يحب علىّ أن أطيعه.

لو كان العمر يوما لصبرت، ولو كان ألف عام لكنت الآن أجالس صلاح الدين، ولأملت أن أقابل بعد قرون من يأخذ بثأر أبى، لكنه بين بين، وماأقسى البين والبين بين.

ياالهى، ماذا أفعل باقى الليل، إن كنت فى بدايته هكذا فماذا يفعل بى عندما يوغل، اشترى تذكرة للسينما، لا لأننى أريد أن أدخل، بل هى ثلاث ساعات تخف وطأتها علىّ.

قدماى تئنان، تضجان منى شكوى، أحتسى القهوة فى الأمريكين، لو يظهر عادل بلال فجأة، يمد إلىّ ذراعيه يحتضننى فأبكى على صدره، لو يأتى ليقول لى لم يهن علىّ أن أتركك عشية ٥ يونيه فأنا أدرك عذابك.

ـ **محمد** فهمى عبد الله، ستدعونى على شاى وجاتوه.

التفت بحدة لأرى إبراهيم أبو شنب.

ـ أهلا يا إبراهيم.

ـ ماذا تفعل هنا، هل تنتظر آمال.

قلت له معابثا :

ـ آمال أو غيرها لا يهم . . المهم أن معى بطاقة.

أطلق ضحكة جهورية أغاظتنى، من أين لك كل هذه القدرة على العماء، على عدم الإحساس.

يتحدث ولا أسمع، ويسأل فلا أجيب.

- . . . .

- . . . .

- . . . .

- . . . .

- كيف حال كوثر.

ثم أطلق ضحكة صاخبة أخرى.

- هل كانت هى من احتلمت بها أمس، من ساعتها لا أكف عن الضحك كلما تذكرت.

حتى المسخور منه يسخر منى. لابد أن أوقفه على أى حال. قلت ضاحكا :

- لماذا تخاف من مصطفى؟.

- أنا أخاف من مصطفى؟!. هو الذى يخافنى لكننى أتجنب الفضائح. أنا وهو من نوع واحد لكننى إذا بليت استترت بينما هو يعلن.

- لماذا يسميك الإنسان.

أطلق ضحكته الكريهة قائلا :

- هذه قصة طويلة وحفلة السينما ستبدأ.

قلت مستمتعا بإغاظته :

- مازال هناك وقت، الجريدة المصورة والعرض القادم، فاحك لى، أم تظننى لا أعرف.

- ماذا تعرف؟.

ـ أنه يسميك الإنسان منذ يوم الصحة العامة حين ذهبتم إلى قرية صفط اللبن وأبدت آمال جهلا مضحكا بأنواع الحيوانات فأخذ مصطفى يشير: هذه بقرة، وهذه جاموسة، وهذا حمار ثم أشار إليك قائلا: وهذا هو الإنسان.

وصلني رذاذ لعابه وهو يطلق ضحكة مغيظة.

ـ الحمد لله الذى لم أكن حمارا مثله.

ثم أردف :

ـ لم ترد عليّ: كيف حال كوثر.

فنظرت إليه بدهشة فواصل :

ـ يا مسكين هل تعلم أن آمال تخدعك؟.

ـ ....

ـ لا توجد واحدة اسمها كوثر لكن آمال تغير فى خطها وتكتب لك.

ـ تضيف رذيلة الكذب إلى الحماقة.

ـ ورحمة أبيك ما أقوله لك حق.

ـ اذهب إلى السينما وإلا فاتك الفيلم.

ـ إن كنت لا تصدقنى فاسألها.

يمنعنى الكبرياء من رفع نصل السكين عن عنقى، فلا أسأله كيف عرف لكنه يتطوع قائلا :

ـ لماذا لا تسألنى كيف عرفت؟.

ـ لأننى أعرف أنك كاذب.

ـ اشتم كما شئت، لكننى عرفت صدفة، كنت قد سمعت حديثا بينها وبين عادل بلال، كان قلقا عليك بسبب شئ لا أعرفه لكن آمال قالت له: مالا أعرفه أنا ستعرفه كوثر، ولم أفهم حتى وجدتها فى إحدى النوبتجيات معى تنتحى جانبا لتكتب خطابا وتضعه فى أجندة معها، بعد هذا تركتنى ونسيت الأجندة فسرقت الخطاب وفوجئت أنه موجه من كوثر لك.

ثم أردف ضاحكا :

ـ إننى أحتفظ به مع البطاقة فقد يفيدنى فى علاقتى بآمال ذات ليلة.

مد يده إلى جيبه الخلفى فأخرج حافظة أخرج منها الخطاب:

ـ سأريه لك شرط ألا تخطفه.

ـ ....

ـ ....

ـ ....

ـ ....

ـ اذهب إلى السينما يا ابراهيم.

ـ ألن تأتى معى.

نظرت إليه بدهشة :

ـ إلى أين؟.

ـ إلى السينما طبعا.

ـ لكننى لا أنوى الدخول.

فأجاب :

ـ لكننى رأيتك تشترى تذكرة دخول فاشتريت أنا الآخر ثم تعقبتك إلى هنا .

انفجر يا أمريكين أو انشقى يا أرض.

ـ أجل، لكنها كانت لحفلة الغد.

يا إلهى .. إننى أتالم دون ان أحس، كمشطور بقذيفة مدفع لم تترك له وقتا للإحساس بالألم.

أخرجت تذكرة السينما من جيبى، ومزقتها، لماذا لا أختصر كل شئ، لماذا لا أموت، بلا أمل وبلا ألم وبلا سعادة وبلا انبهار ولاشفقة ولا استحسان ولا اشمئزاز ولا ندم، لا مباليا بنفس الطريقة التى مزقت بها تذكرة السينما الآن.

تعال يا عادل.

أمر على باب اللوق مرة أخرى وأصعد إلى عيادة رئيس القسم فأجد شجارا والممرض يصرخ فيهم: من يريد سحب الكشف أهلا وسهلا، ومريض يتأوه: شهر انتظار ثم تقول اسحب الكشف، وآخر يقول فى يأس: الموت أسهل من انتظاره فيرد عليه آخر بل أسرع ويرد الممرض متبرما: هل يرفض الباشا طلب رئاسة الجمهورية.

أتسلل خارجا بعد أن أدركت أنه اعتذر. لماذا رجعت؟. ألكى أقتنعِ بأننى فعلت ما علىّ

أعد العشاء وأجلس أمام التليفزيون.

ماذا تفعل أمي الآن، وماذا تفعل جدتي وعمتي وأين عادل وماذا كان يفعل أبي في مثل هذه اللحظة تماما منذ ربع قرن.

أمسك بصحيفة قديمة فأقرأ فيها بطريقة ابتدعتها، إذ أقرأ الصحيفة بالعرض من أولها لآخرها دون اعتبار للفواصل والأعمدة فيتمخض الأمر أحيانا عن مفارقات صاخبة.

يزعجني صوت التليفزيون فأخرسه، أدع الصور تتحرك على شاشته دون صوت، لن أتعاطى الليلة أقراص الفينوباربيتال، سأواجه، ماذا لو لم أنم، لو ظللت بقية عمري لا أنامِ، هذه الليلة الأخيرة لأبي، انفضّ حفلك يا أبي، غادره الناس جميعا إلاى وأمك، هذه هي ليلتك الأخيرة، أتخيلك جالسا على المقعد أمامي، وأناجيك، أتحدث بصوت عال وبالرغم من ذلك لست مجنونا يا عادل، أنا أعرف أنه مات، وأنه لا توجد قوة في الدنيا قادرة على إعادته، لكن ماذا أفعل وهو حي في قلبي.

سرٌ الأسرار كُشف لي، الكلمة الأولى، ما يجعلني أقول للشئِ كن فيكون، أدركت مالم أدرك وفهمت مالم أفهم، فعلمت لم لمْ يُكشف لغيري، بدأت باجتماع للكنيسيت فأمرته كن عدما فكان، تضطرب إسرائيل والعالم، تعجز كل مخابرات العالم عن معرفة سر ما حدث، ويستسلم بني صهيون لِماَ لم يدركوا

من خبره طرفاً فيشكلون حكومة جديدة ومجلسا جديدا لكنه يختفى فى أول اجتماع، ويموج العالم بالرعب والتربص وتأتى إلى القدس وفود العالم وخبرائه، لكن كلما أتى منهم واحد اختفى وتوجه أمريكا وروسيا وأوروبا صواريخهم النووية إلى العواصم الإسلامية فلم يعد لهم أعداء أخر، أتصل تليفونيا بمكاتب رويتر والأسشيوتدبرس محذرا من أن الصواريخ الموجهة للقاهرة سوف تنطلق إلى لوس أنجليس بعد خمس دقائق، تنفجر لوس انجليس فينفجر العالم، والخبر الذى أهملته وكالات الأنباء فى القاهرة يصبح الخبر الوحيد فى العالم، أتصل بهم مرة أخرى، بأقصى اهتمام فى الوجود يسمعون إلىّ، على الخط مدير ال C.N.N: هل يمكن أن أجرى معك حديثا، أجرِ،أين آتى لك، لن تأتى، كيف أجرى الحديث إذن، بالتليفون، لكننى أريد أن أراك، أنظر إلى نيويورك فإن استقرت مكانها فسوف ترانى، وتنفجر نيويورك، وينضم قادة العالم إلى مدير ال C.N.N صارخين متوسلين، من أنت، لا جدوى الآن أن تعرِفوا، ماذا تريد، العدل، فإننا نطلب الرحمة، من لم يرحم لا يُرحم، يعقد الفزع ألسنتهم حتى ليغرقوا فى عرقهم وبولهم، حاسبوا أنفسكم يا أتعس المخلوقات، أظننتم أنكم قادرونٍ عليها، الرحمة الرحمة الرحمة، أظننتم أن ما فعلتموه ينسى، أحرك المحيطات فيواجهون الطوفان مولولين، فأنصرف عنهم إلى إسرائيل

فيخرجون جميعا رجالا ونساءً كبارا وصغاراً ينوحون ويتوسلون :

ـ أيها الكائن المجهول فى القاهرة، نوافق على كل شروطك لكن أبقِ على حياتنا.

ـ لمَ فعلتم ما فعلتم؟.

ـ سيدى أضلونا، غرروا بنا.

ـ إليكم شرطى، أن تردوا إلينا كل ما أخذتموه منا.

ويأتى الرد كلمح البصر :

ـ كل ما أخذناه هو لكم، الأرض والمال والحضارة.

ما أشد دماثتكم وأنتم مرعوبين أذلة لكنى أقول لهم :

ـ لا يكفى

ـ تزييف التاريخ نعترف به.

ـ لا يكفى.

ـ وضع الأحاديث نقر به.

ـ لا يكفى.

ـ نتوب.

ـ فات الأوان.

ـ عبيدنا من حكامكم نرشدكم إليهم.

ـ نعرفهم.

ـ خذونا عبيدا.

ـ لا يكفى.

يصرخون وهم من الهول فى هول :

ـ ماذا تريد إذن.

ـ الشهداء.

ـ ماذا؟!.

ـ الشهداء، كل شهيد يعود كما كان كأن شيئا لم يكن

ـ كيف؟!.

ـ وكل ألم وكل ذل تأخذوه.

ـ لانقدر فتجاوز.

ـ لماذا أخذتم إذن ما تعجزون عن رده.

يتسرب حلم اليقظة بين يدىّ، أحاول فأُعجز، أمد ساقىّ على مقعد مقابل واسترخى.

تدهمنى فرحة طاغية عندما أرى أبى حيا لا دم على وجهه، لكنه يبدو حزينا ملتاعا فأجرى إليه، أجرى بكل ما أملك من قوة وبأقصى ما أستطيع من سرعة، لكن المسافة بينى وبينه لا تقل، ويشير إلىّ وهو من الانزعاج فى غاية ألا أذهب نحوه، فأقول له لا أستطيع يا أبى، لم يعد لى إلاّ أنت، فيتحرك دون أن يخطو حتى يختفى، فأظل أجرى، وأجرى

حتى أصل إلى بيت جدتى فأجد الباب مغلقا فأطرق ولا أحد يجيب لى فأواصل الطرق، وتصيبنى الدهشة لأننى أطرق بكل ما أوتيت من قوة لكن الصوت منخفض جدا.

استيقظت فاكتشفت أننى نمت فى مكانى وأن الطرق على الباب حقيقى فهززت رأسى بعنف كى اتيقن من أننى استيقظت وأنه ليس حلما آخر، ياالهى، من الطارق، عادل أم آمال أم شوشو أم راوية، أتوجه إلى الباب، لعلها أمى أو زوجها أو آمال، أفتح الباب فإذا بجارتى تنسل داخلة فى عجلة مغلقة الباب بكاحلها ملقية بنفسها علىّ عابثة فى جسدى كأن أعواما وأعواما لم تمر وكأن شيئا لم يحدث، تدفعنى إلى السرير ملقية بنفسها على، تمتصنى بوحشية لكنها ما تلبث حتى تدرك خمودى، عدم استجابتى، موتى، فتبدو فى وجهها معالم الدهشة والقلق والغيظ فتحاول ثانية وثالثة دون جدوى فتخمد حماستها وتبرد أصابعها وشفتاها وتحاول مرة أخيرة فتفشل فتقوم لتصلح من شأنها وتنصرف دون كلمة ودون أن تنظر نحوى.

لو أن الطبيعة تسمح أن أشك فى أمومتك لـ....

يا إلهى، يا إلهى، كيف شككت فيما لايمكن أن يُشك فيه ووثقت بما لا يمكن أن يوثق به، هل أبى أبى حقا، ألا يمكن أن تكون خيانة أمى له سبقت مولدى بفترة تسمح أن أكون ابن أى رجل آخر، أن أكون ابن زوجها مثلا، أو ابن عم بسيونى، هل انتهزت أمى ذات يوم إغراق أبى فى النوم

فتسللت إلى تلك الشقة المقابلة، وذلك الرجل الذى لم يكن أيامها عجوزا فطرقت الباب ففتح لها فألقت بنفسها عليه فلم يعجز.

سأنتقم يا أمى، سيأتى اليوم الذى تتوسلين إلىّ فيه أن أغفر ولن أغفر، ستعترفين بكل شاردة وواردة، أما ما أعجب له حقا فهو صبر الجحيم عليك. ٢٤ سنة وأنا ضحيتك، ٢٤ سنة وأنا أدفع وأنت تأخذين، أظننت أن لن يأتيك يوم تدفعين. غدا أبدأ، وعندما أبدأ لن أنتهى، حتى تطلبين الموت فلا تجدينه.

آآآه، ما أفظع الصداع.

أقوم إلى المطبخ، أتناول ستة أقراص من الفينوباربيتال وقرصا من النوفالجين. أكان مثل هذا الصداع يصيبك يا أبى، هل أنت أبى حقا؟!. ماذا قال إبراهيم لى، لا توجد كوثر، آمال هى كوثر، هل حدث هذا حقا، أم حلم يقظة، أم أضغاث حلم، من يستطيع أن يثبت ذلك الآن، فى مثل هذه اللحظة أين كان أبى، ماذا كان يقول، فى مثل هذه اللحظة ماذا كان يفعل جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وموشى ديان وجونسون، ماذا يفعل عادل بلال الآن، فى هذه اللحظة تماما على مستوى العالم كم مليونا يشبقون وكم مليونا يموتون وكم مليونا يصرخون وكم مليونا يولدون وكم مليونا يفكرون فى الانتحار وكم يشرعون فيه وكم مليونا يموت آباؤهم وكم مليونا تخونهم أمهاتهم وزوجاتهم، ومن يفكر كما أفكر، لماذا كنت أنا، لماذا لم أكن شخصا آخر، مزق الرجل بطاقتى وسألنى من أنت، الآن والبطاقة معى هل أستطيع أن أجيب. أنا لست مريضا يا عادل، أنا آخر جيل

انقرض، أنا آخر جيل، ثمالة اليأس والعجز والألم فيّ، لست مريضا، قد تكون أنت المريض وقد يكون العالم.

أستولد حلم اليقظة فأعجز، أحاول، ماذا سأقول لهم بعد أن أطلب منهم أن يعيدوا إلينا شهداءنا، ماذا سأفعل بهم، فيهم، لن أقول لهم اذهبوا فانتم الطلقاء فماذا سأقول، أعجز عن المواصلة، الحلم بارد لاحرارة فيه لا ينمو، ولا يكمل نفسه، لكن رأسي يدور، تفر من عيني دمعة فأقرع نفسي، عليّ أن أنام الآن كي أستيقظ قبل الثامنة حتى اعيش مع أبي آخر لحظاته، تفر دمعة أخرى فأتقلب على الفراش متسائلا ماذا كان يمكن أن أفعل بغير الفينوباربيتال.

آآآه

تنطلق الصرخة مني رغما عني عندما أراه.

آآه أبي يموت في الصحراء الموحشة وحده، يكتشف فجاة أنني بجانبه فينظر إليّ، تلتقي عيناه الحزينتين الخابيتين بعينيّ، أوسد رأسه النازف فخذي،ينطفئ البريق فأسبل عينيه واغلق فمه ثم أكفنه دون غسل فهو شهيد فيأتي زوج أمي بالماء ويصبه عليه فأصرخ فيه كلا كلا، إنه شهيد، فيقول ليس شهيدا فأصرخ والله شهيد، فيقول أصدرت قانونا بغسل الشهداء، فأتوسل إليه: القانون لا ينفع فيقول استصدرت فتوى، فجريت كي أهرب فلم تطاوعني قدماي فقلت أطير

فأخذت أرفرف بذراعيّ لكننى لم أطر ووجدت سناء أمامى ضاحكة فقلت لها هل تضحكين وقد خانتك زينب فضحكت مرة أخرى فقلت لها لماذا تصمتين كجارتى، فطارت، وحاولت أن ألحقها فلم استطع، فصرخت يا جدتى، ووجدت نفقا فى الأرض فقلت لعله يتصل بنفق القصر العينى، ودخلت فيه لا أدرى هل يوصلنى إلى قبر أبى أم إلى بيت جدتى، لكن النفق أخذ يمتلئ بالماء فأدركت أن هذا عمل زوج أمى لكننى وجدتنى غواصا أنقذ ضحايا سالم اكسبريس، أطوف حولها، أطرق جدرانها من الخارج فتجيبنى طرقات من الداخل فأعلم أن أبى فيها وأصرخ لكنه لا يسمعنى ولا أسمعه، وأجرى بملابس الغواص إلى أمى زاعقا أبى ما زال حيا، فيضحك زوج أمى وهو يلبس ملابسه الرسمية فلاحظت أنه أصبح فريق أول فعجبت كيف يرقى رتبتين مرة واحدة ونويت أن أسأل عن السبب فيما بعد، وقلت له أرجوك، أبى محبوس فى الباخرة الغارقة لكنه حى فقال لم يصدر أمر بالإفراج عنه فناديت أمى، لكنه سبقنى إليها وأخذا يتهامسان فى اهتمام وهما يحرصان ألا أسمع لكننى سمعته يقول لها لو أخرجناه سيضعونا مكانه، وفتحت النافذة المطلة على النيل فدخل الماء منها وأمى تضحك قائلة ستغرقنا فى الماء، ويصعد الماء فى الشقة حتى يغرقنا وزوج أمى يضحك ويقول هل تظن ملابس الغواص تنقذك، ووجدتنى أغرق بينما هما

يضحكان تحت الماء فتعجبت، ثم اصطحبها إلى غرفة النوم فناديت يا أمى فقال ألا ترى أننا مشغولان وضحكت وهو يجذبها من ذراعها فتساءلت لماذا استطاعا أن يعيشا تحت الماء ولم يستطع أبى، وأخذت أختنق وأقول لنفسى لا بد أن ملابس الغواصين مغشوشة وأخذت أتخلص منها وخرج زوج أمي يقهقه والماء يقطر منه فعجبت كيف يقطر الماء تحت الماء لكننى وجدتنا جميعا فى شقتى فصرخت فيهم اخرجوا من بيت أبى، فأمسك بالتليفون كى يستدعى لى الشرطة فصرخت تليفون أبى لم يأت بعد فقال بل ركبته باسم أمك فأمسكت به كى ألقيه من النافذة فصرخ فىّ لا تفتح النافذة وإلا تسرب الهواء إلينا فنموت، ثم نظر إلى أمى قائلا: عندما يموت ترثين هذا البيت فصرخت يا جدة، وخرجت أجرى فقابلت آمال بين المدرجين عارية فعجبت، وسألتها هل أنت آمال أم كوثر فأشارت إلى ثدييها قائلة هذا ثدى آمال وهذا ثدى كوثر وأخذت تشرح لى الأمر وأنا من الدهشة فى غاية، ثم قبلتنى وانتشيت لكنى خشيت أن أكمل فيرانى إبراهيم، وفجاة وجدت أبى سليما معافى يجلس أمام الشاهد فجريت نحوه فصرخ وهو من الفزع فى غاية: لا تقترب، لكننى اقتربت فإذا بانفجار يصم الآذان، وأبى أشلاء، وارتجف شلو منها وهو يقول قلت لك لا تقترب.

صحوت من الكرب فى كرب، وثمة ألم عنيف فى رأسى ورعشة فى جسدى وحمى فى دمائى لبثت برهة أتساءل ماهو الحقيقى وما هو الحلم فيما حدث، وخشيت أن يغلبنى النوم مرة أخرى فأعود للحلم، فهرعت إلى النوافذ أفتحها مستدعيا النور وأنا ألهث.

كيف تسللت هواجس الإنسان الأول عبر آلاف الأجيال إلىّ، لتبذر فى نفسى مشاعر الخوف والرعب والقلق، أنا لا أنام بل أسقط فى جب سحيق للزمن، وعندما أستيقظ أجد ملايين الأفكار تنتظرنى كحشرات وحشية تمتص دمائى، أغادر غرفة النوم مسرعا هاربا من الزمان والمكان مستجديا نور النهار أن يمنحنى ذات الطمأنينة التى كان الضوء يمنحها لجدى منذ خمسين ألف سنة.

أتطلع إلى ساعة الجدار فإذا بها الحادية عشرة صباحا، يالها من نشوة أن تمر الساعات الثلاث الأولى الحاسمة وأنا نائم، كل ٥ يونيو أنذبح فى هذه الساعات الأولى كأنما أبى يموت فيها لا من ربع قرن.

اندفعت إلى الحمام، فتحت الصنابير حتى أخرها وألقيت بنفسى فى البانيو، يالها من راحة أن أكتشف أن كل ما حدث كان حلما، ويالها من نشوة أن يدغدغ الماء جسدى، أسترخى، أشهق بعمق وأزفر بحرقة، قال مصطفى يوما أن الماء يذكرنا بسعادتنا حين كنا فى أرحام أمهاتنا فنسعد، هل كنت فى رحمك ذات يوم، اليوم أرد عليك مافعلتيه بى.

الإفطار الأخير قبل انتقامى.

أتطلع إلى صورة أبى، أرقب للمرة المليون طريقة تصفيفه لشعره، أتوجه للرجل العجوز فى السيدة زينب، اندهش حين طلبت منه قبل ذلك ما أريد قائلا هذه طريقة قديمة لم يعد أحد يطلبها منذ ثلاثين عاما فقلت له أننى من أجل هذا اخترته.

لطالما تخيلتنى مكانه وزوج أمى مكانى، أتنكر فى هيئة حلاق، أشحذ الموسى ثم أمرره على وجهه وعنقه وفجأة أذبحه فأنحعه.

ينجز الرجل عمله فى سرعة لا تتناسب مع عمره قائلا:

ـ سوف ندرك صلاة الجمعة بصعوبة.

ـ لكنه مازال فى الآذان الأول، ثم الخطبة بطولها.

فنظر إلىّ بدهشة قائلا :

– الخطبة مهمة كالصلاة.

ثم أردف :

ـ لدينا مكان للوضوء فتفضل.

ـ لكننى متوضئ.

ـ وضوء على وضوء نور على نور.

لو قلت له ما أقوله لعادل لقص لسانى بدلا من شعرى.

جرفنى تيار من العبث ثم اليأس، توضأت، سوف أصلى يا أبى، سوف اصلى وأهب صلاتى لك، لكننى أنا المحتاج لصلاتك لا أنت، أتخطى الرؤوس داخل المسجد وأصلى ركعتين، هل بقى منك ما يصلون عليه صلاة الجنازة، وهل بقى من يصلى، الخطيب يخطب فيتلو من القرآن آيات عن بنى إسرائيل فلماذا لم يصدر زوج امى مرسوما بحذفها، ياعادل أنت لم

تعرفنى أبدا، لأننى أنا نفسى لم أفهم نفسى وثمة بصيص ضوء يتسرب إلىّ الآن أن الإرسال جيد لكن الاستقبال عندى ردئ.

ما أشد الزحام، يارب، اتسعت رحمتك لكل هؤلاء فلماذا توصد فى وجهى بابك، أحبك، وحقك أحبك، وجلال وجهك أحبك، لا حقيقة إلا أنت، لا حب إلا لك، لا صدق إلا معك، لا مهرب منك إلا إلا إليك، جدنى، أغثنى، من نفسى ومن الدنيا. يرتفع صوت الخطيب، كأنه يتحدث لى، كأنه يعرفنى وهو يهتف : كن كالسمكة، خذ حقك من الهواء الذى فى الماء دون أن تتطلع إلى إخراج رأسك أعلى الماء وإلا هلكت. أعتذر لك ياعادل، طالما سخرت منك ومنهم، أنا الذى قلت لك يوم صليت الجمعة معك دون وضوء أن الخطيب الجيد هو من يقوم بعملية التنويم المغناطيسى عليك، يبدأ الخطيب فى الدعاء فأهتف معه بمجامع قلبى : آمين وتنتهى لصلاة فلا أخرج بل أنضم إلى حلقة تدعو فأدعو معها : يا الله، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، يارحمن يارحيم يامك ياقدوس يامؤمن يامهيمن ياعزيز ياجبار يامتكبر ياخالق يابارئ يامصور ياغفار ياقهار ياوهاب يارزاق يافتاح يا عليم ياقابض ياباسط ياخافض يارافع يامذل ياسميع يابصير ياحكيم ياعدل يالطيف ياخبير ياحليم ياعظيم ياغفور ياشكور يا على ياكبير ياحفيظ يامقيت باحسيب ياجليل ياكريم يارقيب يامجيب ياواسع ياحكيم ياودود يامجيد ياباعث ياشهيد ياحق ياوكيل ياقوى يامتين ياولى يا حميد ياقادر يامبدئ يامعيد يا محيى يامميت يا حى ياقيوم ياواجد يا ماجد يا واحد يا أحد ياصمد يا ياقادر يامقدم يامؤخر ياأول ياآخر ياظاهر ياباطن يامتعالى يا بر يا تواب يا متنقم

ياعفو يارؤوف يامالك الملك ياذا الجلال والإكرام يامقسط ياجامع ياغنى يامغنى يا مانع يانافع يانور ياهاد يابديع ياباق ياوارث يارشيد ياصبور أنت الله لا إله إلا أنت لك الأسماء الحسنى.

أخذ المحيطون بى يربتون علىّ فأدركت أننى كنت أصرخ بالدعاء لا أردد، وأننى كنت أجهش بالبكاء.

يحدث ماحذرك ياسناء منه، انهار السد العالى الذى اقمته كى يحجز طوفان الدمع فأبكى وأبكى ولا أعرف كيف تكون النهاية، ولا أعرف السبب، توقف، توقف يابن فهمى عبد الله، أنت كالمنوم مغناطيسيا وقد فقدت كل قدرة للسيطرة على نفسك، توقف، أين اختزنت كل هذه الدموع، توقف فإنه يخيل لى أنك ستظل تبكى حتى تموت، أدخل إلى الضريح، لا أجرؤ على أدعاء أن حياتى كانت أشد قسوة من حياتك فلماذا صبرت أنت ولم أصبر أنا، لماذا استطعت ولم أستطع، وكيف كيف كيف كيف.

يؤذن للعصر فأصلى، يالها من نشوة أن أظل فى هذا المكان فلا أبرحه أبدا، لماذا قسوت على نفسى كل هذه القسوة، لماذا عذبت نفسى، فى الدنيا أشياء غير الألم، أشعر أننى أولد، وأنا أسير فى الشارع وجدت الناس قريبين طيبين، وهذا الرجل الذى لا أعرفه يمكن أن يكون صاحبا، أن نتواصل، لماذا اقتصرت من التاريخ على فترة واحدة، لماذا لم أنظر فيما مضى وآمل فيما هو آت، ما أشد حماقتى، كالغريب الذى يدلف إلى مدينة فلا يغادر بابها، يكب على النواح والعويل عليه، ادخل ياغريب وجل، ماذا يمكن أن يقول عادل بلال عندما يعرف ما حدث، مازال يحدث، أتوق أن أرى وجهه، ملامحه وأنا ألقى إليه بتطورى الجديد، وأنا أطلب منه أن يصحبنى

للصلاة فى المسجد، أعبر شارع القصر العينى متوجها إليه، تستطيع الآن أن تنسى بصقتى عليك، كنت أقول له غدا ستصبح مثل إبراهيم أبو شنب وحسن عبد الفتاح فيقول بل أنت الوجه الآخر لهما. فى الدنيا ملايين ملايين الأوجه يا عادل، ما أكثر الأشياء التى يمكن أن أفعلها، لكن الوقت قصير. لن أكدره بعد ذلك، سأعيش حياة وادعة هادئة، وليأت الموت وقتما شاء، هل كان يعلم أنه سيموت مثل هذا اليوم من ربع قرن. أمر على شاهده فأقرأ الفاتحة، أنا فخور بك يا أبى فأنت شهيد، أما أمى، اللهم قدرنى على الغفران لها، أطرق باب عادل، بخفق قلبى عندما أسمع صوت خطواته فى الداخل، يفتح الباب لكنه ليس هو، إنما زميله فى الحجرة، أما عادل فليس موجودا ولا يعرف الزميل أين هو ولا متى سيعود، يغشانى حزن، أعود إلى بيت أبى، ينادينى الكواء كى آخذ حلة زفاف أبى، يا إلهى، كنت قد نسيت، يعطينى حزمة من الأوراق التالفة الممزقة قائلا : وجدتها فى ملابسك، يا إلهى ... خطابا امين وكوثر، على الدرجات الأخيرة للسلم تفتح جارتى الباب وتتطلع إلىّ باسمة ثم تغلقه، ماذا تريد، ماذا تقولين، انتبه يامحمد، النشوة تتسرب منك، اقبض عليها بمجامع روحك، لاتسمح لها أن تغادرك، هذا هو ميناؤك الأخير، أملك الأخير فلا تضيعه.

أعد غدائى، لن أستطيع الغداء عندك ياأمى، سأتغير أجل لكن رويدا رويدا.

السادسة مساء. لماذا ابتسمت جارتى؟.

هل كان ما حدث بالأمس واقعا، هل حدث فعلا أم أننى تخيلته أم حلمت به، أنا غير موقن، لو سألتها لأنكرت على أى حال، نفسى عزوفة

عن كل شئ، تترامى امامى مئات الكتب، المكتبة مكدسة وثمة عشرات بل مئات مبعثرة فى أركان الشقة، على كل المنضدة والمقاعد وفى الأركان وفى المطبخ وحتى فى الحمام لكن نفسى عازفة عن كل شئ.

هل أذهب الآن إلى أمى، نفسى عزوفة حتى عن الانتقام، أتطلع إلى صورة أبى. هل عشت حقا، هل وجدت قط، وأنا هل أنا موجود حقا أم أننى مجرد حلم، كابوس لكائن لا أعرفه يوجد فى مكان آخر.

الساعة تدق السادسة والنصف والتليفزيون يذيع المصارعة الحرة، أشجع الأسود ضد الأبيض فينتصر الأبيض بتثبيت الأكتاف، وأدعو أن ينتصر الضعيف على القوى فيسقط بالضربة القاضية، فأرجو أن ينتصر المهذب على الشرس لكنه يهرب من الحلقة فأغلق التليفزيون.

لو أننى وجدت عادل.

لكن لماذا؟.

الحمد لله أنى لم أجده.

الساعة تدق السابعة.

على أى حال سأذهب لأمى، سأذهب بالقصور الذاتى، برغبتى القديمة فى الانتقام، دون حماس ودون جدوى، أنظف الحذاء وألمعه، أبحث عن الجورب حتى أجده، سيكون شكلى غريبا وأنا أرتدى هذا الزى الشتوى فى حر يونيو القائظ. أبدأ فى ارتداء حلة أبى، كأنها لى، أمشط شعرى وشاربى، أقارن بينى فى المرآة وصورته، فكأننى هو.

كم الساعة الآن، توشك على الثامنة؟، كيف لم أسمع دقاتها فى السابعة والنصف.

يؤذن للمغرب، أردد الأذان بخوف. أخشى أن أصلى فلا أجد نشوة، أخشى أن تلفظنى، أحسم ترددى وأبدأ الصلاة، مع سجودى كان ذهولى فالحلة تتفصد على جسدى، تتمزق من كل جزء فتتكشف أجزاء من جسدى، خرجت من الصلاة مقهقها فى وحشية، لماذا تغلق بابك.

جدتى ضدى وعمتى ضدى وأمى عدوة وزوج أمى شيطان وعادل يخاصمنى وأمال تخدعنى وسناء ترفضنى وزينب تتجنبنى وعم يوسف غاب وعم بسيونى لم أعد أراه ومصطفى يسخرمنى وإبراهيم سيتزوج آمال، فهذا أفضل من أن تتزوج عادل.

الثامنة والنصف مساء.

فى مثل هذه اللحظة هل كنت حيا؟!.

لم أعد أشفق عليك، ووجهك المضمخ بالدم لم يعد يثير لوعتى وأساى.

أنا المستحق لهما لا أنت، لعلك لم تفقد الأمل فى حياتك يوما ولعلى لم أملكه فى حياتى لحظة.

أنت عشت عمرا أتمنى أن أعيشه ومت ميتة أتمنى أن أموتها.

هل يمكن أن أفتح التليفزيون ذات يوم لأجد زوج أمى رئيسا للجمهورية.

ماهو الخطأ وأين، لماذا لا يستشهد السفلة ويعيش الشهداء.

ثمة صرصار يسعى على الأرض، يتوقف أمامى، يهز شواربه وكأنه يحملق فىّ. يجرى هاربا عندما أتحرك، رويدك فلن أقتلكِ، ما يدرينى أن ابنك وأمك ينتظرانك، ابراهيم أبو شنب، ياله من مضحك، ومصطفى بعد حكاية الجمجمة عندما أخذ يرسل إليه خطابات على عنوانه مكتوبا على

مظروفها «الراسب بالسنة الثالثة» وساعي البريد الذى كان يقرأ الجملة كما لو كانت تكملة للإسم.

لو وافقت سناء على الزواج مني.

لو لم تكن آمال كوثر.

لو . . . .

التاسعة مساء.

أدير المسجل على شريط لفريد الأطرش: عدت يا يوم مولدى، عدت يا أيها الشقي. كنت نسيت أن اليوم يوم مولدى. ماذا أعجبني في فريد الأطرش، أو عبد الحليم، أو حتى أم كلثوم، ماذا؟. كله باطل، كله وهم، مامن كلمة حق واحدة، مامن أحد يصدق، مامن صواب، الصدق كذب والحق كذب والوطن كذب، والبطولة كذب أما الاستشهاد فحماقة، والأم كذب، والحب كذب، وآمال كذب كذلك سناء وشوشو، عادل بلال هو الآخر كذب، أما الفكر والعلم فسراب خادع، لم يتقدما أبدا الا باثبات أن ما كان قبلهما وظن به اليقين ذات يوم ليس الا محض جهل وخرافة، وستدور الأيام كى يثبت أن يقيننا الذى نعيش به اليوم ليس الا كذبا

لماذا تركتني دون أن تفسر لى سر هذه القسوة، هذا الجبروت، ملايين وملايين من السنين وبلايين وبلايين من الناس أما العذاب فلا كيل يكيله ولا وزن يزنه ولا ذراعا يقيسه ولا حجما يحدده ولا دليل أيدا أبدا على قرب النهاية، مامن أحد يكسب، الكل يخسر والكل يستمر، مامن فائز، مامن منتصر، وليس رسمنا على الأرض الا شاشة كمبيوتر لبرنامج لابداية له ولا نهاية، وليست صورة الدم على الشاشة دما، وليس الموت موتا،

وليست الحركة حياة، أما الألم فكالفرح منظومة من ملايين السالب والموجب على شريحة معدنية فى حجم عقلة الاصبع، وان كان لكل شئ معنى يا عادل بلال فهذه الحمم التى تنقذف من جمجمتى هى الأخرى لها معنى. وذيل هذه السحابة التائهة فى السماء له معنى.

التاسعة والربع مساء.

مامن أحد على صواب.

تنتهى أغنية فريد الأطرش ليبدأ فى أغنية أخرى فأغلق المسجل غاضبا.

هل الإنسان حيوان ارتقى بالفكر أم تدنى بالقهر، أم أنه لا موجود إلا الغائب أما الموجود فغائب.

أما لهذا الطنين أن يتوقف، ولهذا الدوى أن يصمت ولهذا الأتون أن يخبو لهبه. أفكر باستمرار، فى صحوى وفى منامى، فى عملى وراحتى فى غدوى ورواحى، أفكر وأنا آكل، وأنا أشرب، وأنا أمشى وأنا أجلس، وأنا أرقد وأنا أنام وأنا أصحو، أفكر حتى وأنا أفكر. تعبت. لا توجد حتى آلة تحتمل العمل عشرين سنة باستمرار، دون لحظة راحة، توقف، انفجار.

التاسعة والثلث.

أنت كجالس فى قاعة سينما بعد انتهاء العرض. ماذا تفعل. انتهت القصة.، اشتعلت الأضواء وقام الناس وانصرفوا وانطفأت الأضواء ولم يعد إلا أنت، ماذا تنتظر؟ وماذا تريد؟. ما عرفته هراء وما لم تعرفه هراء إلاأنك تحتمل ألما من الجنون الاستمرار فى احتماله.

قلبى أعمى وبصرى أعشى وروحى ضالة ونفسى ضائعة.

ليس ثمت طريق.

ليس ثمت حل.

لم يعطنى شئ ماأردت، قدس الأقداس وسر الأسرار والكلمة الأولى، وذلك الشئ الذى يراه قلبى فيهتف عقلى آه فهمت، ما يجعلنى لا آمل إلا فيه ولا أخشى إلا غضبه ولا أرجو إلا وجهه، الكلمة التى ما أن أعرض عليها سؤالا إلا أجابته، ولا لغزا إلا حلته، ولا مسألة من مسائل الدنيا والآخرة إلا أبانتها، الكلمة التى تسحق الزمن فلا يبقى من أفعال اللغة سوى المضارع أما الماضى والمستقبل فليسا إلا درجات من درجات الوعى مستترة فى ظلام تضيئة الكلمة. أريد أن أرى فى نفس اللحظة بنى إسرائيل فى التيه وفى سيناء ٦٧ وفى أعماق الجحيم يسامون أشد العذاب، وأريد ان ارى فى لحظة أخرى وجه أبى دون دماء تلطخه، أراه فى قصر العينى يتجول بين الأقسام يقابله رئيس القسم ويعانقه وأصحبه إلى جدتى لأسمع صرختها الأسطورية حين تراه وأراه فى نفس اللحظة فى الجنة هاتفا بى يا أحمق أتبكينى وأنا أرفل فى هذا النعيم. الكتب عجزتْ، والوجدان عجزت أنا فى الوصول إليه، أما تجربتى فى المدرسة الثانوية فعلقم مازال يقطر فى فمى حين وجدت من يبشرنى بعالمى الذى أحلم به فذهبت إليهم فى شقة تطل على السيد البدوى، أغرتنى مناظرهم ومناصبهم ولحاهم والعالم السحرى الذى يسبحون فيه لكننى وجدتهم ينالونه عبر أدخنة الحشيش.

لا أمل. لا طريق. ونشوتى الكاذبة التى ظننتها اليوم بداية الطريق لم تكن إلا انسطالا.

منذ قرن كانت الساعة التاسعة وعشرون دقيقة وهى الأن تدق معلنة

التاسعة والنصف. أعد لنفسى فنجان قهوة، أمى تنتظرنى، جدتى تنتظر أبى أما أنا فلا أنتظر أحدا، ألمح علب الفينوباربيتال، كأننى قمت من أجلها، علبة ناقصة وعلبتين كاملتين، فى كل علبة خمسون قرصا، خمسون وخمسون مائة، مزقت غلاف العلبتين الكاملتين، أفرغتهما فى جوفى متعجلا كأنما أخشى أن يعطلنى أحد أو أن أتردد، أخذت القهوة، شربتها فالتقت مرارتها بمرارة قلبى.

قل الآن رغبتك الأخيرة.

هل تموت واقفا، أم جالسا، أم راقدا.

هل تموت فى ردهة البيت أم فى إحدى حجراته.

هل تكتب رسالة؟

فلمن؟.

الجمعة ٥ يونيو الساعة ٩٫٤٠ مساء

الآن أموت . . .

اليوم الأخير.

أرقد للمرة الأخيرة لا يزعجنى أحد . . أموت لا يدركنى أحد ١٠٠ قرص فينوباربيتال كافية لكى تجعلك ترقد إلى الأبد. اللحظات الأخيرة الوحيدة السعادة فى حياتى. ارقد للمرة الأخيرة لا يزعجنى أحد. يالها من نشوة أن يظل الباب يطرق فى الصباح ولاأسمعه أبدا. ويالها من نشوة أن يتوقف هذا الهدير داخلى فلا أسمعه أبدا. يالها من نشوة أن أقهر الأحلام والكوابيس والرؤى بضربة واحدة. ويالها من نشوة أن تشرق شمس الصباح فلا أراها. أطرق أبواب العدم، يجيبنى الصمت، والعدم. أرفع رايات

الاستسلام وأعلن الهزيمة. تقدم أنت يا عادل فلو تقدمت لاخترقت ولو تقدمت لاحترقت. غير أنى فى لحظاتى الأخيرة أدرك وأحس وأكاد أرى. تعذبت كثيرا فما حيلتى فى عدم الوصول إلى أبوابك. أطرق بابك، هدنى الألم. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له ظلمات السموات والأرض. أعوذ به وألجا إليه وأحتمى فيه، أشعر أنك ستتلقانى فى أحضانك مثل نبى صغير معذب. يا إلهى، يا أبى. يا أنا لم يبق فىّ سواك. يا من لا أنت إلا أنت. الآن أموت. بعد لحظات أسقط. فيالها من نشوة أن تبحث عنى الدنيا لتعذبنى فلا تجدنى. رأسى يدور الآن. يأتى الصباح فلا تنهش الهموم لحمى، ولا أنزف. لا أتعذب من أجل أبى ولا جدتى ولا عمتى ولا سناء ولا آمال. لا أتساءل عما حدث لماذا حدث، ولا يبهظنى أن مالم يحدث لم يحدث. لا أحمل أحلاما تسفع آلاما . . . . . لا أحيا. ربما ظللت إلى فترة طويلة دمعة فى عينى عادل بلال. صديقى الذى لم أحب أحدا مثلما أحببته، لكنه بالرغم مما يبديه كان مثلى معذبا وضائعا، يا جدتى فرع الشجرة يسقط،باختياره يسقط، يسقط سعيدا، ويسقط وحيدا، السمكة لم تخرج فوق سطح الماء لكن البحر غاض. أبصق فى وجه العالم، ألفظ طوفان الآلام الأبدى الأيام حبالى بالأحزان، ينمو فى رحم الدنيا كالسرطان، فيدمرها، يقتل فينا أصداء الرغبات، يجعل كل الأيام خناجر أو نارا أو بركانا أو طوفانا، شوتنى الشمس . . . . . . وجمدنى بهيم الليل، لا يبقى ما أحيا من أجله، الشر أبدى والخير أبدى والحزن أبدى، لا يبقى إلا توزيع الأدوار، فلماذا أختار، رأسى يدور الآن، إننى أبكى، لاحزنا على نفسى، وإنما أبكى لأننى لم أتخذ هذا القرار منذ وعيت، منذ جرحت، منذ

ذبحت، ماذا تفعل الآن أمى، هل تعلمين أن ابنك يموت الآن، ما . . . . ، ما أكثر الأفكار التى تدور فى رأسى، ما أكثر ما أريد أن أقول، تتصارع الأفكار داخل رأسى كل منها تريد الفرار من جسد يموت، كأنها ستموت معى. ما أكثرها . . . . . . أحتاج عمرا آخر. عادل: هل سعيت أنت أن أقاطعك أم أننى أنا الذى ذفعت الأمور. يا رب،لماذا تركتنى. الكلمات ثقيلة على لسانى، أجفان عينىّ مصاريع أبواب ضخمة. الحجرة تدور بى، الباب يطرق، أموت ولا يفتح. ثمة صوت ينادى علىّ من الشارع، أهذا أنت يا عـــادل. ل . م . . ا . . ذ . . ا أ . . ت . . ى . . ت ا . . . لآ . . ن .رأسى ثقيل، العرق يتفصد من جبينى، حبات باردة. سوف أسقط فاقد الوعى. أهذا أنت يا أبى . . . . . . .لا تعرض عنى. . . . . . بحثت . . . عنك . . . . كثيرا . . . . لا تتركنـــ . .الآن . . . . رأسى . . . . .
الـــ . . . .

عادل

٨ يونيو

لست مدانا. وإنما كل شئ بقدر.

كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون.

كانت الحقيقة منه قاب قوسين لكنه مضى.

كنت واثقا أنه سيصل، فقد كان صادقا.

لكنه مضى.

عندما جاء مصطفى أبو عوف ينقل الخبر لى حاول أن يفعل بأرق مايكون ، لكن كيف تغمد فى قلب أخيك سيفا برقة.

للوهلة الأولى ملأنى الفرح. نشوة مستحيلة التفسير. جلست على السرير فى غرفتى فى سكن الأطباء، لو يمضى مصطفى، قال لى الخبر، أدى مهمته فماذا ينتظر، لدى عمل، مشغول جدا، جواربى ومناديلى التى أغسلها لم أنته منها بعد، بقى عام على الامتحان، لم أذاكر كما ينبغى فيما مضى، الوقت يمر، سبعة كتب فى سنة، يجب أن أنتهى كل شهر من كتاب حتى يبقى وقت للمراجعة، أىّ مراجعة؟ أنا أمتحنت فعلا ونجحت، أنا مشغول جدا وورائى مهام تعجز عن حملها الجبال لكنى لا أذكر شيئا منها، داخلى مزدحم، يخرب بيتك يا ابراهيم، لن اقول لآمال عما قلته لى لكن من اين عرفت، ماذا ستفعل المسكينة عندما تعرف، وأمه، أعنى جدته، عندما اقابله غدا سأهنئه، حياته كانت رواية، ملحمة

عظيمة، وهذه هى النهاية اوحيدة لمنطقية لها، الآن تستطيع أن تبدأ من جديد، أصفح عنك فاصفح أنت الآخر عنى، ثلاثة شهور والقطيعة بيننا، أكان لامناص، ابدأ من جديد فى رواية أخرى، لكن لاتجعل البطل يموت فيها، اجعله يحيا، عندما القاك غدا سأقول لك ذلك، لن أدع لك فرصة للمراوغة سوف أتلقاك فى أحضانى، حتى لو يصقت فى وجهى، لكن لماذا أؤجل ذلك للغد، الوقت يمر. غدا قد لا استطيع.

قد تفلت منى.

- مصطفى : ساذهب الآن اليه.

كما لو كان شخص آخر يحدث شخصا آخر فى مكان آخر لم اسمع لتساؤله الذاهل

- : «اين»

اندفعت نحو صوان الملابس فواجهتنى فى بابه المرآة، وبمجرد ان رأيت وجهى هالنى مرآه، فسقطت فاقد الوعى.

آمال - كوثر

٩ يونيو

منهارة تماما، لا أكف عن البكاء، عادل بلال لا يبكى، لكنه أشد منى انهيارا، بقية من عقله تمنعه من الذهاب للنيابة للاعتراف بقتله.

لماذا لم أعترف له، أننى لم أحب أحدا فى الدنيا غيره، أكثر من أبى وأمى، أن قشرة الاستهتار والتحرر التى كنت أبدو بها أمامه ليست منى، كنت أصطنعها، أدفع بها عن نفسى وحشية الآخرين وسحقهم لمشاعرى، كانت تجعلنى دائما بعيدة، لو أطلق أحدهم علىّ الرصاص من على بعد متر واحد لابد قاتلى، من على بعد مائة متر سيجرحنى من على الف متر ربما أسمع الدوى. كانت هذه هى طريقتى فى معاملة الآخرين يامحمد، الآن ينفجر اللغم لا على بعد متر ولا الف متر وإنما داخل قلبى، فلماذا لم تفهم انك لست الآخرين، أنك أنا، وأننى إن كنت لم أحس بك، فكما لاتحس المريضة بجرح فى احشائها، بنزف فى صدرها، لماذا لم أقل لك كم أحببتك، لماذا لم أتوسل إليك، ابذل لك نفس وجسدى وروحى كى استبقيك، لو أننى أدركت، فهمت، صدقت

. . . .

لكن

لا فائدة . . . انتهى كل شئ . . . .

ابراهيـــــم
١٠ يونيــو

كلب ومات.

لا يبقى يا أبناء العاهرات إلاّ أن تخرجوا عليه فى مظاهرة، فالبطولة فى هذا الزمن للكلاب وأبناء الكلاب.

قابلتنى آمال بين المدرجين فاتجهت نحوها ضاحكا إذ لم أكن أعرف ماحدث، سلمت عليها فضغطت يدها اللينة فى نشوة، تعمدت اثناء جلوسى بجانبها أن يحتك فخذى بفخذها. سألتنى فى صوت خفيض :«هل عرفت»، أجبت ضاحكا : «أنا أعرف كل شئ» فصمتت، قبل أن أشرع فى معاكستها جاء عادل بلال، الذى لم أكره مثله أحدا إلا محمد فهمى. هبت آمال واقفة ثم ألقت نفسها بين ذراعيه، يا ابنه الزانية، هكذا أمام الجميع، ألم أكن أنا بهذا الحضن أولى، لكن الأمر لا يبدو غراما، فهى تجهش بالبكاء، أما عادل فوجهه محتقن كعرسة.

بعد أن هدأ مهرجان النواح، وتجمع الزملاء حولنا قال عادل:

ـ سنقيم له حفل تأبين فى الكلية، ولو اعترض حسن عبد الفتاح سأقتله.

قالت آمال :

ـ سنذهب الليلة لعزاء أمه.

ـ حاولت كثيرا دفنه فى مقابر أسرته لكن أمه وزوجها اصرا.

أطرش فى الزفة؟ عمّ يتحدثون؟.

- من الذى مات؟

نظرت إلىّ آمال فى دهشة قائله :

- ألم تقل أنك عرفت؟

- كنت أضحك كالعادة

- محمد فهمى عـ ....

ثم انطلقت فى البكاء من جديد.

- محمد فهمى عبد الله؟ متى؟ كان معى يوم الجمعة؟ جلسنا ساعة فى الأمريكيين نضحك.

قالت آمال نائحة.

- إذن تكون آخر من رآه

لم استطع منع فضولى فسألت :

- وكل هذا الحزن والبكاء من اجله. اتقى الله، ظننت من مات أباك أو أمك. ماذا يعنى موته، الناس يموتون كل يوم.

صاحت :

- أنت بلا إحساس.

- صحت فيها غير قادر على منع نفسى :

- بل أنت جننت وعلى ماذا، على كلب مات.

بنت الكلب بصقت فى وجهى، بين المدرجين، وأمام من أعرف ومن لا أعرف، ولم تكتف بذلك فأخذت تخلع

حذاءها، فكرت لثانية واحدة فى الرد عليها لكننى خشيت رد فعل المحيطين فجريت.

أى يوم أسود تطلع لـى فيه هذه المجنونة، الا يكفينى فضائح، مازال الكل يسألنى عن فضيحة الحرس والبطاقة.

هذا هو حسن عبد الفتاح، سأذهب إليه، لن نترك أبناء الكلاب يقيمون عزاء يقرأ فيه القرآن لكافر. لكلب ابن كلب ومات.

تمـــت

للمؤلف

اغتيال أمة	طبعة أولى ١٩٨٧	مكتبة مدبولى
اغتيال أمة	طبعة ثانية ١٩٩١	مكتبة مدبولى
الحاكم لصا	طبعة أولى ١٩٨٩	مكتبة مدبولى
مباحث أمن الوطن	طبعة أولى ١٩٩١	«مصادرة» مكتبة مدبولى
قصر العينى	طبعة أولى ١٩٩٢	مكتبة مدبولى

تحت الطبع

- من مواطن مصرى إلى الرئيس مبارك
- الوزير
- جلالة الملك . . . فخامة الرئيس



قصر العيني

النوم غول أخشاه فليس كقسوة الأحلام قسوة ، وأقسى ما فيها تلك اللحظات بين اليقظة والنوم ، لحظة التساؤل المروع ، هل ما حدث قد حدث حقاً أم ليس إلا حلماً ، ساعتها ينشب الصراع الأسطورى بين الحلم ونفيه إذ يبدو الحلم كجنين لم يكتمل ، لم يتشكل له ولم يبد ملمح ، كصلصال فى يدى مثال ، لكن هذه النطفة الصلصاليه سرعان ماتدرك التهديد بالفناء فتصارع صراعاً مذهلاً من أجل البقاء ، وتنمو الأعضاء وتتشكل الملامح ، لذلك بعد أن تكتمل يقظتى ، وبثبت أن ماحدث لم يحدث قط ، أعجز عن تحديد ماحدث فى الحلم فعلاً وما أضيف أليه فى لحظات الصراع تلك

فى هذه الروايه يصحبنا د. محمد عباس فى جولة من الفكر بين الواقع والخيال عبر ردهات القصر العينى وطرقاته .

الناشر

مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١
MADBOULI BOOKSHOP 6 Talat Harb SQ. Tel: 756421